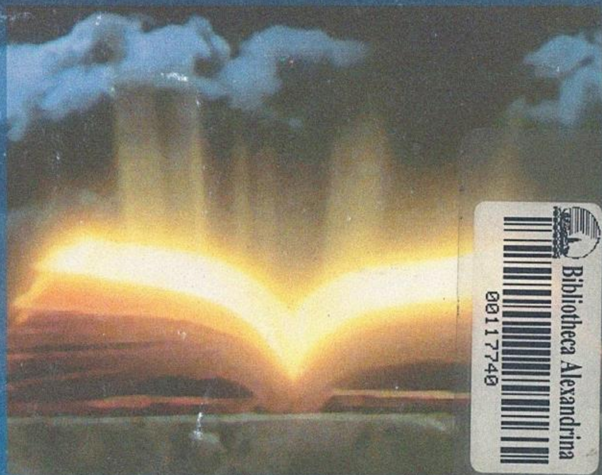
عبد الرحمن بدوى

الدفاع عن القرآن ضد منتقديه



مدبولى الصغير

الدفاع عن القرآن ضـــد منتقديـه

١

الدفـــاع عن القـــرآن
ضـــد منتـــقـــديه

الناشر: **مكتبة مدبولى الصغير**
٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز
تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ ـ ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥
رقـم الإيـداع : ٩٨/٣١١٣
الترقيم الدولى : x - 052 - 286 - 977

الطبعة الأولى :

تصميم الغلاف : عاطف منصور

الصف والإخراج الفنى : كريم كمبيوتر

عبـــدالرحمـــن بـــــدوى

الدفاع عن القرآن ضـــد منتقديـــه



الناشـــر: مدبولـــى الصغيـــر

مقدمـــــة

كان القرآن باعتباره الأساس الجوهرى للإسلام منذ النصف الثانى من القرن الأول للهجرة (السابع الميلادى) هدفاً رئيسياً لهجوم كل من كتب ضده سواء من الغرب أو من الشرق. وقد وجه هذا الهجوم فى البداية على النسق العام للقرآن ككل يوحنا الدمشقى J. Damascene (٦٥٠ ـ ٧٥٠م تقريباً) فى كتاب بعنوان: «الطوائف» .De Haeresibus (Patr. Gaeca, Txiy, Col. 764-774). او تلك التى نشرها اثيميوس زيجابينوس Euthymius Zigabenos (١٣٣١ – ١٣٥٩م) فى مؤلفه: .Panoplia Domgatica, Patr Gr., Lxxx, Col. 1331-1359.

لكن اول هجوم مفصل على القران ورد فى كتاب نيكيتاس البيزنطى تحت عنوان: «نقض الاكاذيب الموجودة فى كتاب العرب المحمديين»: Confutatio Falsi Libris Quem Scriptis Mohamades Arabs, (Patr. Gr., t. CV, Col. 669-842.

والحقيقة انه لم تصلنا معلومات وافية عن هذا الاخير سوى انه كان مشهوراً فى النصف الثانى من القرن التاسع، وأنه كان من اعنف المهاجمين للإسلام وكذلك للكنيسة الارثوذكسية الارمينية التى انتقدها فى كتاب «دحض الكنيسة الارمينية» (Confutation de la lettre du Roi D'Armenie)، وايضاً للكنيسة الكاثوليكية الرومانية التى تعرض لها بالهجوم فى كتاب اخر بعنوان (Capita Syllogistica XXIV).

ويسجل التاريخ ان اوسع حملة شنت على القرآن والإسلام اثارها المستشرق جهان كنتاكوزين إمبراطور بيزنطة (ولد حوالى ١٢٩٢، وتوفى حوالى ١٣٨٠م)، وقد جاء هجومه

مفصلاً فى كتابين: الكتاب الأول بعنوان: Contra Sectam Apologie IV (Patr, Gr., t. 154, Col. 371-583)، والثانى بعنوان: Contra Mahometan Oration Quator (Patr. Gr., t 154, Col. 583-692).

ولن نتوقف فى عرضنا عند المؤلفات الناقدة للقران والتى كتبت باللغة السريانية. (انظر روبز دوفال Rubes Duval، الادب السريانى La Litterature Syriaque، باريس ١٨٩٩، ص ٣٧٨). أو كتبت باللغة الارمينية والعربية، (انظر جراف: الأدب العربى المسيحى) (Cf. Graf: Die Christlich. Arabische Litteratur Bis Zu Franschen Zeit, 1905).

وبسقوط القسطنطينية على يد المسلمين الأتراك عام ١٤٥٣م توقف كل الجدل البيزنطى ضد الإسلام، وانتقل مركز ثقل الهجوم إلى أوروبا المسيحية التى رفعت اللواء. فبدأ الكاردينال نيكولا دى كوزا Nicholas Di Cusa (١٤٠١ - ١٤٦٤م) المسيرة الجديدة للهجوم بدعوة من البابا بيوس الثانى Pie II الذى دعاه إلى تأليف كتاب يفند فيه دين الإسلام. فنشر نيكولا دى كوزا كتاباً يتهجم فيه على الإسلام بعنوان «غربلة القرآن»: (Cribiatio Al Chorani Oeuvres, Ed De Bâle, pp 879-932).

نشر هذا الكتاب فى مدينة بال Bâle بسويسرا عام ١٥٤٣م فى ثلاثة اجزاء، عرض المؤلف فى الجزء الأول إدعاءً مفاده إثبات حقيقة الإنجيل استناداً على القران.

وقدم فى الجزء الثانى شرحاً تفصيلياً عن المذهب الكاثوليكى.

وختم عمله فى الجزء الثالث ببيان ما وصفه بتناقضات القران. بعد هذا التاريخ توالى جدل الجيزويت والدومينيكان وهجومهم على القرآن.

وكتب دينيس الأمين «حول الخداع المحمدى»، (كولون، ١٥٣٣م): Denys Le Char-treux (m. en 1471): Contra Perfidiam Mahometi, Cologne, 1533).

● الفونس سبينا (ت١٤٩١م): Alphone Spina (M. en 1491): Fortalitium Fidei, Lym, 1525).

● جان دى تيـريكريمـاتا (ت ١٤٦٨م): Jean De Turrecremata, o.p. (M. en 1468): Tractatus Contra Principales Errores Perfidi Mahometis, Pars. Sans Date Rome 1606).

● لويس فـيـيف (ت ١٥٤٠م): Luis Vives (m. en 1540): De Veritate Fidei Christianae Contra Mahomedanos, Bâle, 1543).

● ميشيل نان (١٦٣٣ ـ ١٦٨٣م): Michel Nan, SJ (1633-1683): Ecclesiae Romanen, Gracae Vera Effigies et Consensus, Et Religio Christiana Contra Accoranum ex Alcorano Defensa Et Probata, Paris. 1680.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو ان معظم هذه الكتب وجهت نقدها للإسلام عامة ولم تتطرق إلا عرضاً للقران، ولم تظهر أول دراسة مفصلة ضد القران إلا فى العقد الأخير من القرن السابع عشر، فى الدراسة التى قام بها لويفيكو مراشى (مرعشى) Ludovico Maracci (١٦١٢ ـ ١٧٠٠م) فى كـتـاب من جـزئين بعنوان: Al Corani Universus (Padova, 1698). وحمل الجزء الأول عنوان: Prodomus Ad Refutationem Alcorani. وطبع فى اربعة اجزاء منفصلة عام ١٦٩١، حيث يتطرق مرعشى، الذى كان يجيد العربية والسريانية والعبرية، لحياة محمد من خلال المصادر العربية. أما فى الجزء الثانى يقدم مرعشى النص العربى للقران مع ترجمة باللغة اللاتينية زودها بالتعليق والشرح للمقاطع الغامضة خاتماً كل هذا بالتفنيد. وقد كتب المستشرق كارلوا الفونسوا نللينو C.A. Nallino بحثاً حول «المصادر المخطوطة فى عمل لويفيكو مرعشى حول القران». (Rendiconti R. Acc. d. Lincei, Cl. Sc. Mor, 6eme Serie, 7, 1932, pp 303-349).

ويمكن اعتبار عمل مرعشى أساس ونقطة انطلاق الدراسة الجادة فى أوروبا عن القران. لكن يجب القول كذلك ان هذا العمل غير دقيق وملىء بالأخطاء الفادحة والحجج الضعيفة التى تفتقر إلى الدقة العلمية. ونفس هذه الأخطاء سنجدها بدرجات متفاوتة فى كل البحوث والدراسات حول القران التى قام بها المستشرقون خلال القرنين التاليين لظهور كتاب مرعشى. كما سنثبت ذلك فى كتابنا هذا.

مامن شك فى انه ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر حاول المستشرقون توخى الموضوعية والدقة فى أطروحاتهم وكذلك الاهتمام الشديد بالتدقيق الموضوعى للمنهج اللغوى Philologie.

لكن الغريب فى الأمر أن أدوات فهم اللغة الحديثة التى توفرت للمستشرقين منذ منتصف القرن الماضى - خاصة بفضل سهولة الوصول إلى المخطوطات - قد أعطت لبعضهم المزيد من الجسارة فى اختلاق الفرضيات والنظريات الزائفة الوهمية ليستخلصوا منها مايشاءون من نتائج تجانب الصواب.

لهذا السبب يأخذ الكتاب الذى نحن بصدده على عاتقه فضح وكشف هذه الجراءة الجهولة. وليس فى نيتنا، مع هذا، حل كل المعضلات القرانية المثارة - بعضها يظل - وسيظل ربما دائماً - موضع بحث ودراسة أعمق وأفضل تناولاً من عدة زوايا.

ونبدأ بتسجيل بعض الملاحظات العامة:

١ - إن معرفة هؤلاء المستشرقين للغة العربية من الناحية الأدبية أو الفنية يشوبها الضعف. ويمكن القول أن هذه الملاحظة تخصهم جميعاً تقريباً.

٢ - إن معلوماتهم جميعاً المستقاة من مصادر عربية جزئية ناقصة وضحلة وغير كافية، وهم يرمون بأنفسهم فى مغامرة طرح فرضيات خطيرة وخاطئة يعتقدون أنهم أول من توصل إليها، دون تكليف أنفسهم عناء التقصى لدى تلك المصادر عن نفس المعضلات التى يثيرونها. إذ تطرق الكُتَّاب المسلمون فى حقيقة الأمر لهذه الفرضيات واعترضوا عليها.

٣ - إن ما يحرك بعض المستشرقين دافع الضغينة والحقد على الإسلام مما يفقدهم الموضوعية ويعمى بصيرتهم بطريقة أو بأخرى. وهذا ينطبق خاصة على: هيرتشفيلد H. Hirschfeld - هوروفيتز H. Horovitz - سبير H. Speyer.

٤ - لقد ذهب بعضهم من السطحيين إلى الإعلان بأعلى صوته أن فى القران انتحال وتقليد وسرقة، معتمدين على تشابه لا أساس له. وهذا ماقام به مستشرقون مثل:

جوتسيهر Golziher ونوبلكه Nödelke وشوالى Schwally ومرجوليوث D.S. Margoli-outy. ونتحفظ نوعاً ما فيما يتعلق بنوبلكه Theodor Nödelke الذى يتبرا نوعاً ما من مؤلفه: Geschichte de Korans (Göttingen, 1830)، عندما رفض إعادة طبعه تاركاً المستشرق شوالى Schwally يقوم بهذه المهمة، فطبع الكتاب ثانية واصبح يُعرف بكتاب نوبلكه - شولى: Nödelke-Schwally: Geschichte des Korans.

٥ - لقد كان بعضاً من هؤلاء المستشرقين مدفوعاً بالتبشير والتعصب المتحفز، مثلما هو الأمر بالنسبة للمستشرق وليم موير William Muir وس. م زفيمر S.M. Zwemer.

ولن نعالج بطبيعة الحال فى هذا الكتاب كل القضايا التى اثارها المستشرقون بصدد القران. فلم نتطرق إلا لتلك القضايا التى بدت لنا اكثر اهمية، كما حصرنا بحثنا فى الفترة مابين منتصف القرن التاسع إلى منتصف القرن العشرين.

ومع ان موضوعنا يتسم بطابع جدلى، إلا اننا اتبعنا منهج علم اللغة الصارم متوخين اكبر قدر من الموضوعية، يحدونا فى هذا هدف واحد، الا وهو فضح بعض اشباه العلماء الذين خادعوا الكثيرين فى أوروبا وغيرها..

لكن القرآن خرج منتصراً على كل هذه الهجمات.

عبدالرحمن بدوى

باريس، ١٩٨٨

الفصل الأول

ماهـو مفهـوم لفـظ «أمـىّ» المتعلق بالنبى محمد (ﷺ)؟

لعل أكثر الكلمات إثارة للجدل عند محاولة تفسير الألفاظ القرآنية هي لفظة «أميّ»، خاصة عندما يتعلق الأمر بالنبي محمد (ﷺ).

إذ تنطبق هذه الصفة على عدة حالات كما جاء في القرآن:

(أ) وصف النبي محمد (ﷺ) كما جاء في الآيات:

١ ـ ﴿فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (سورة الأعراف ـ الآية: ١٥٦ ـ ١٥٧).

٢ ـ ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ (سورة الأعراف ـ الآية: ١٥٨).

(ب) وأما في وصف الأمم كما جاء في الآيات:

١ ـ ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (سورة الجمعة ـ الآية: ٢).

٢ ـ ﴿فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني وقل للذين أتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ (سورة آل عمران ـ الآية: ١٩).

٣ ـ ﴿ومن اهل الكتاب من إن تامنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من تامنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً ذلك بانهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ (سورة ال عمران ـ الآية ٧٥).

٤ ـ ﴿ومنهم اميّون لايعلمون الكتاب إلا امانىّ وإن هم إلا يظنون﴾ (سورة البقرة ـ الآية: ٧٨).

● لنبدأ ونتفحص الحالة الأولى وهى عندما يطلق النعت «امىّ» على النبى محمد (ﷺ):

(أ) التفسير الذى سيؤخذ به فى اغلب الاحيان من طرف مفسرى القران وكذا اللغويين هو ذلك الذى ورد فى لسان العرب ومفاده أن الرسول محمد (ﷺ) وصف بالأمىّ لان الأمة العربية لم تكن تكتب او تقرا النصوص. وقد بعث به الله رسولاً رغم انه لايجيد القراءة والكتابة. وكانت هذه الصفة هى إحدى معجزاته لانه رتل القران على امته تباعاً حسبما انزل دون تغيير ودون تشويه كلماته. بينما اعتاد خطباء العرب تعديل اقوالهم التى ارتجلوها سلفاً سواء بالزيادة او النقصان. وقد حكم الله ان يحفظ نبيه كتابه كما انزل عليه. واصطفاه من بين الذين أرسل إليهم بهذه المعجزة. فأنزل الله الآية ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ (سورة العنكبوت ـ الآية ٤٨).

هؤلاء «المبطلون» الذين لايؤمنون كانوا سيؤكدون انه (محمد) قد وجد هذه القصص المكتوبة وحفظها من الكتب.

نستنتج مما سبق:

١ ـ أن النعت «امىّ» تعنى: الذى لايكتب ولا يقرا.

٢ ـ انه مشتق من كلمة امة، بمعنى امة الكتاب من حيث ان هذه الأمة كانت فى مجملها اميّة. ويؤكد لسان العرب هذه الفكرة مورداً انه يقال عن للعرب اميين لان الكتابة تكاد تكون منعدمة بينهم او هى منعدمة تماماً.

ويورد كذلك حديثاً للنبي (ﷺ) يقول فيه: «إنما بعثت لأمة أميّة».

٣ ـ ويورد لسان العرب اشتقاقاً آخر لكلمة «أميّ»، «أميون» ينطبق اكثر على الأمم اى على الحالة الثانية اعلاه. وينسب هذا الاشتقاق إلى فقيه اللغة الكبير فى البصرة ابو إسحاق الزجاج (المتوفى فى ٣ جمادى الثانى ٣١١ هـ/ ٢٥-٩-٩٢٤ م). إذ يقول الزجاج إن الأمي هو الذى ولد على خليقة الأم، اى على الفطرة، اى كما ولدته امه لم يتعلم الكتابة، لأن الكتابة صفة مكتسبة.

ونصل طبقاً لهذا الاشتقاق إلى أن نعت «امي» يأتى من أم. فنحن إذن أمام صياغتين لصفة أمي:

ـ امي مصدرها من أمة.

ـ امي مصدرها من أم.

ويمكن تبرير الصياغتين من حيث القواعد دون مشاكل تذكر. لكن الأمر يختلف عندما يتعلق الامر بالبحث فى المعنى. إذ تتضارب وجهات النظر حسبما أخذت الصياغة الأولى أو الثانية. وإذا كان لفظ امي يحمل فى الحالة الثانية مفهوم الذى لايقرأ ولايكتب فإنه فى الحالة الأولى لا يؤدى أبداً إلى نفس المعنى.

لهذا السبب يجد الذين يفسرون كلمة «اميّ» المطبقة على النبي(ﷺ) من ناحية انه ينتمي إلى «امة» ـ وهى فى هذا الصدد الأمة العربية ـ فى وضعية حرجة لأنه من الخطأ أن نجزم ونقول إن الكتابة كانت نادرة أو غير موجودة تماماً لدى العرب، اضف إلى ذلك أن امما كثيرة كانت تعيش نفس الحالة.

لماذا إذن حصر هذا النعت على الأمة العربية لتختص به وحدها دون سواها، خاصة انه يمكن الاعتراض على هذا استناداً إلى الآيات التى استدللنا بها فى الحالة التى ورد فيها لفظ «اميّ» و«اميون» للدلالة على الامم؛ حيث ان الامر يتعلق بأمم كثيرة متعارضة او موازية مع امتى التوراة (اليهود) والإنجيل (المسيحيين) اى اهل الكتاب بصفة عامة.

أولاً - آراء المستشرقين:

لنناقش الآن آراء المستشرقين الأوروبيين حول معنى «أميّ» و«أميون»..

(1) لقد كان سبرنجر A. Sprenger أول من تناول هذه المسألة في كتاب من ثلاثة أجزاء بعنوان: «حياة وعقيدة محمد» (برلين ١٨٦١): Das Leben Und Die Lehre Des Mohamed (Berlin 1861).

١ ـ يقول في الجزء الأول، ص ٣٠١:

«كانت الشعوب قبل ظهور محمد منقسمة إلى أهل الكتاب والأميين (الوثنيين)، وتمثل أهل الكتاب في اليهود والمسيحيين وأهل سبأ، وهذه الشعوب والقبائل كان بين أيديها الكتاب المقدس، بينما لم يكن لدى الوثنيين أي تنزيل.

٢ ـ ويذكر في الجزء الثاني، ص ٢٢٤:

«إن «أميّ» يعني جنتيليس[*] Gentilis التي تساوي وثني.

٣ ـ الجزء الثالث، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢:

«يدعي هنا أن «الأميّ» هو الرجل الذي يستطيع فعلاً القراءة دون الكتابة».

ويعتمد أصحاب هذا الرأي على فهم خاطيء للآيتين ٧٨، ٧٩ من سورة البقرة ﴿ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانيّ وإن هم إلا يظنون • فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله﴾: إذ يقول ابن إسحاق إن كلمة «أمانيّ» التي وردت عدة مرات في القرآن تعني القرّاء.

ويكون تفسير هذه الآية وفقاً لهذا الشرح كالآتي: هناك من بينهم أميّون لايعرفون الكتابة لكنهم يستطيعون القراءة.

كما نرى فإن شرح هذا الجزء يعتمد على تفسير كلمة «أمانيّ» والتي مفردها أمة.

(*) ونعني بمعناها اللاتيني: الشعوب الأخرى غير اليهودية.

ويعطى الفراء (المتوفى عام ٢٠٧) الذى نكره البغوى تفسيراً يقترب كثيراً مع تفسيرى، إذ يشرح كلمة «امانىّ» قائلاً إنها مرادف لـ«احاديث مفتعلة». بينما ينهب ابو عبيدة إلى ابعد من نلك مفسراً كلمة «امانىّ» بانها «امر محفوظ عن ظهر قلب يلقى دون اللجوء إلى كتاب». وفى مقام آخر ينكر الفراء ان **الاميون** هم العرب النين لم يكن لهم كتاب».

علينا ان نتوقف عند ادعاءات سبرنجر لتقديم الملاحظات التالية:

١ ـ انه لايستند فى ادعائه الأول على اية وثيقة تثبت كلامه. فإن وجد نص واحد يعود تاريخه إلى ماقبل الإسلام ينص على التفرقة بين اهل الكتاب **والأميين** (الوثنيين) لما طرحت هذه المشكلة. وبالتالى فإن سبرنجر اوقع نفسه فى حلقة مفرغة.

٢ ـ القول بأن «امىّ» تحمل معنى وثنى Gentilis ماهو إلا ادعاء سيتردد لدى كل من فنسك A. Wensinck وهوروفيتز Horovitz وبلاشير Blachere، ورودى باريت Rudi Paret وغيرهم.

٣ ـ يتناول الجزء الثالث آراء النين يفسرون «امىّ» بمعنى الذى لايعرف الكتابة لكنه يجيد القراءة، ونحن نقول ان هذا الرأى يعود للإمام الشيعى جعفر الصادق. (انظر فى إدوارد وليم لين: معجم عربى إنجليزى، لندن وادنبرة ١٨٦٣ ـ ١٨٩٣). Edward William Lane: An Arabic-English Lexicon, C.V., London and Edinburg 1863-1893.

(ب) لننتقل بعد هذا للمستشرق فنسنك A.J. Wensink وهورفيتز Horovitz:

١ ـ يؤكد فنسنك Wensink فى مقال صدر فى مجلة Acta Orientalia (2:121) ان لفظ «امىّ» يطلق على صاحبها من غير «اهل الكتاب». وهذه نفس النتيجة التى توصل إليها سبرنجر منذ خمسون سنة من قبله وهى مشتقة من كلمة امة التى يعنى أنهم العرب. لكن فنسنك يضيف ان كلمة «امىّ» مشتقة من كلمة امة بمعنى الشعب الوثنى Ethnicos التى تطابقها بالعبرية كلمة جوا Goi. وبراه يتناول نفس الرأى فى كتابه «العقيدة الإسلامية» The Islamic Cread (Gambridge, 1532. p6)، قد انفرد عن سابقيه حين وازى بين اللفظ العربى «امة» والكلمة العبرية Goi.

لكننا نعلم ان كلمة «جوا» قد وردت فى التوراة (التكوين: إصحاح ١٤:١) فى عبارة «تدعال ملك جوييم». وتدعال هو احد الملوك الأربعة الذين حاربوا الملك برشاع Penrapolis فى هضبة الأردن. ومن الممكن كذلك أن يكون تدعال هو نفسه الملك الحيثى المشهور Tud-halias. أما معنى كلمة جوييم فمشكوك فيه، حيث أطلق على الشعوب التى كانت تكوّن الإمبراطورية الحيثية، كما اطلق فى نفس الوقت على جوتيم Gutim إحدى المناطق فى اعالى الزاب.

وعند تفحصنا لكتاب يشوع (إصحاح ١٢: ٢٣) نجد ان احد الملوك الكنعانيين الذين هزمهم يشوع اسمه ملك جوييم الجلجال. ونفس الاسم يرد فى الرواية Confraternell فى عبارة «الملك الغريب جلجل» "Le Roi Étrawge de Galgal".

(Encyclopedic Dictionary of the Bible, s.v.: Goyyim, Turnhout Brepels, 1863, col 896 - 7).

لكن كلمة جوييم تعنى بصفة عامة امم فى اللغة العبرية. وقد تكون ترجمة للكلمة الاكادية عومان (انظر: الموسوعة اليهودية). Encyclopedis Jubaica, s.v. Goiim, T7, col 683.

ويبدو جلياً إذن ان لفظ جوييم لم يكن منتشراً ومحدداً لدى اليهود بالدرجة التى تجعله معروفاً فى الجزيرة العربية قبل الإسلام. ولهذا فإن اقل مايمكن قوله عن طرح فنسنك هو أنه غير دقيق إن لم يكن خاطئاً فى مجمله.

٢ ـ لهذا بحث المستشرق هوروفيتز J. Horovitz عن مرادف اخر لكلمة «امىّ» فى اللغة العبرية. فتناول هذه المسألة فى اثنين من كتبه هما:

● «اسماء الأعلام اليهودية ومشتقاتها فى القران» Jewisch Proper Names and Derivatives in the Koran (Hebrew Union College Annual, Vol. 11, Ohio 1925. Offset Impression, Hildesheim).

● «مباحث قرانية» Untersuchung Koranische (Berlin und Leipzig 1926, s. 51-53).

ويدعى هوروفيتز وهو عالم مغرض متحيز سيىء النية تجاه الإسلام، ان كلمة «اميّ» معناها وثنى Païen وانها مرادف للعبارة العبرية «امة هاعولام» أى شعوب العالم التى يقابلها على الناحية الأخرى شعب إسرائيل.

من السهل علينا دحض هذا الادعاء الخاطىء. إذ بناءً على مايقوله هوروفيتز نصل إلى ان لكلمة «اميّ» معنى فيه نوع من الاحتقار. حيث ان مفهوم «شعوب العالم» لدى اليهود ينطوى على فكرة أن هذه الشعوب جاهلة وكافرة وضالة مقارنة مع الشعب اليهودى.

ولايمكن ابداً ان يكون النبى محمد (ﷺ) قد قصد هذا المعنى حين وصف نفسه بالأميّ. خاصة انه اكد هذه الصفة امام اليهود وهو يجادلهم. فمن المستحيل إذن أن يكون قد وصف نفسه بالأميّ بمعنى جوا Goi او جنتيليس Gentilis.

(جـ) وهذا ماجعل مستشرقاً مثل فرانز بهل Frants Buhl يقول محقاً: «من الغريب ان يكون محمد قد استعار من اليهود لفظاً يحمل على السنتهم معانى الاحتقار» (حياة محمد) (S. 131, N. 17. Trad. Allemande Par H.H. Schaeder, Heidelberg g. Aufl. 1955). ويستطرد بهل قائلاً إن لفظ «اميّ» مشتق من كلمة أمة التى يعادلها باليونانية كلمة لايكوس Laïkos اى الذى ليست له دراية بأمور الدين.

ويضيف: فكلمة «اميّ» تعنى كما يؤكده بعض العلماء المسلمين ان محمداً لم يكن يقرا ويكتب.. إذ بكونه تاجراً مكياً كان يجيد بدون شك القراءة والكتابة. لكنه فى المقابل لم يكن يعلم شيئاً عن كتب اليهود والمسيحيين المقدسة. هذا هو الواقع الذى اظهره القران عدة مرات. كما يظهر من خلال سرد محمد لروايات الكتاب المقدس اخطاء لم يكن ليقع فيها لو كان على اطلاع بهذا التنزيل». (نفس المرجع).

ويصل بهل إلى ان محمداً كان يجيد القراءة والكتابة لكنه لم يقرأ الكتاب المقدس الذى لم يطلع عليه إلا من خلال العلماء الذين كانوا يدرسونه.

لنفترض أن هذا الكلام صحيح. كيف نفسر إذن أن بهل يرجع ويؤكد ان كلمة «امىّ» مشتقة من كلمة امة، بمعنى الشعب اى «لاتكى او علمانى» بالمعنى الحديث "Laique"؟ واللاتكى او العلمانى بعكس كليريكوس Kilerico معناها «الرجل غير المختص فى الشئون الدينية».

واقل مايمكن قوله هنا هو انه لايعقل ان يصف نبى يأتى ليضع أسس ديانة جديدة نفسه بهذا المعنى. كيف يمكن ان يكون محمداً قد وصف نفسه أمام اليهود والمسيحيين كشخص جاهل فى المجال الدينى؟!

نصل إذن إلى ان راى بهل سخيف مثلما هو الحال بالنسبة لأقرانه فنسنك وهوروفيتز.

(د) المستشرق نللينو C.A. Nallino كتب هو الآخر حول نفس الموضوع مقالاً قصيراً صدر بعد موته ضمن مجموعة اعماله الكاملة. (Raccolto Si Scritti editi. ed iuedit T 11. Romaigluo pp. 60 - 65). بعنوان: "Il Significaro del Vocabolo Coranico "Ummi applicado Raometto e quello si "al Ummyyûn"، حيث يذهب إلى ان «امىّ» مشتق من «أمة عربية»، إنه الراى الذى اطلعنا عليه فى لسان العرب لابن منظور، لكن نللينو لم يورد على عكس ابن منظور ان العرب لم يكونوا فى مجملهم يجيدون القراءة والكتابة. إذ اضفى هذا المستشرق على لفظ «امىّ» صبغة عرقية او قومية.

نعود ونقول فيما يتعلق بنا ان راى نللينو غير مقبول لأنه يقوم على فرضية خاطئة فى أساسها، وهى ان محمداً (ﷺ) كان يعتبر نفسه مبعوثاً للأمة العربية دون غيرها مثلما بعث موسى إلى شعب إسرائيل ويسوع إلى أمة فلسطينية (ماهى لا احد يعرف).

إذ يبدو الأمر وكأنه نوع من تقسيم العمل ومناطق النفوذ بين الرسل! إن خطأ هذه الفرضية لايمكن أن يخفى عن العيان ويسهل تفنيدها من ناحيتين:

١ ـ أولاً، نذكر ان محمدا (ﷺ) بعث فى عام ٦٢٨ خطابات إلى الملوك الأربعة الكبار فى وقته اى: إمبراطور بيزنطة هرقل الثانى، وملك الفرس كسرى وحاكم مصر المقوقس

وملك الحبشة. وهذا يثبت ان محمداً (ﷺ) قد اعتبر مهمته عالمية. ولو كان يعتبر نفسه مبعوثاً للامة العربية فقط لما فكر فى إرسال خطابات إلى هؤلاء الملوك الاربعة لدعوتهم إلى الإسلام.

٢ ـ ثانياً، ان القران يؤكد بصفة واضحة ان النبى محمد (ﷺ) إنما ارسل إلى كل الإنسانية، حيث جاء فى سورة سبا، الآية ٢٨: **﴿وما ارسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لايعلمون﴾**.

نفس الفكرة نجدها فى ايتين آخريين:

(ا) سورة النساء، الآية ٧٣: **﴿وارسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾**.

(ب) سورة الأعراف، الآية ١٥٨: **﴿قل يا ايها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً﴾**.

ليس هناك شك إذن فى أن محمد (ﷺ) اعتبر نفسه رسول الله إلى كل الإنسانية دون تفرقة فى الجنس، أو الامم أو الحدود أو اللغة او اللون. ولم يرد ابداً ان محمداً (ﷺ) جاء نبياً للامة العربية فقط.

إن عالمية مهمة محمد (ﷺ) حقيقة راسخة لايمكن التشكيك فيها إلا فى حالة الجهل التام.

ثانياً ـ تفسيرنا:

نقترح بدورنا تفسيراً لصفة «**الامىّ**» التى تطلق على النبى محمد(ﷺ) انطلاقاً من الحقيقة الأساسية المشار إليها اعلاه. نعتقد ان صفة «**الامىّ**» نعت مكون من الجمع أمم.

[1] طبقاً لهذا إذن نقول إن كلمة «امىّ» مشتقة من كلمة امم وهى جمع أمة، ومعناها: عالمى، صالح او موجه لكل الامم.

فالنبى **الامىّ** إذن هو نبى بعث إلى كل الامم. النبى العالمى إن صح التعبير.

اما الجمع «اميّون» الذى ورد اربع مرات فى قران (البقرة ٧٨ وال عمران ٢٠، ٧٢ والجمعة ٢). فتفسيره شعوب مختلف الأمم أو مجملها. ومن منطلق هذا التفسير نقترح تفسير الآيات الاربع الآتية كما يلى:

١ ـ البقرة ٧٨: هناك أمم لاتعرف الكتاب إلا بشكل جزئى أو خاطىء.

٢ ـ ال عمران ٢٠: قل لأهل الكتاب وللأمم الأخرى.

٣ ـ ال عمران ٧٥: لقد قالوا انه لا سلطان لنا على الأمم الأخرى.

٤ ـ الجمعة ٢: هو الذى بعث إلى الأمم رسولاً من بينهم، اى رجلاً بين الرجال، ليس باله مجسد كما يقول المسيحيون، أو إنسان خارق كما يقول اليهود. وتفسيرنا هذا ينطبق إذن على الأجزاء الاربعة التى ورد فيها لفظ «اميّون».

نضيف أنه لايمكن أن تخفى عن العين سخافة التفسير الذى يجعل من كلمة «الاميون» مرادفاً لـ Gentils (لدى كل من: سبرانجر، فنسنك، بلاشير وباريت وغيرهم). خاصة عندما ناخذ الآية ٧٨ من سورة البقرة فى عين الاعتبار **﴿ومنهم اميون لايعرفون الكتاب إلا امانى وإن هم إلا يظنون﴾**، حيث إذا أخذنا بتفسير هؤلاء تكون هذه الآية مجرد حشو. لأن معنى كلمة جنتيل Gentils هو «الذين لايعرفون الكتب السماوية»، وبالتالى لايمكن معاتبتهم على ذلك، لأن بمثابة معاتبة مسيحى على جهله للكتب البوذية.. إلخ.

وفى الخلاصة نقول إن نعت «الأمىّ» الذى يطلق على النبى محمد(ﷺ) معناه: عالمى مبعوث إلى كل الأمم، و«اميون» معناه الأمم ومجموع الأمم.

ومن المثير متابعة تاريخ هذا النعت «الأمىّ»، وكيفية استعماله من طرف الشعراء والخطباء خلال القرون الهجرية الخمس الماضية لنكتشف متى أخذ هذا اللفظ معنى «الذى لايجيد القراءة والكتابة».

الفصل الثانى

التشابه الكاذب بين القرآن والإنجيل

بحث المستشرقون على مدى قرون متتالية عن وجود تشابه بين القران والكتب المقدسة الأخرى. وراحوا يفتشون فى النصوص القرانية لعلهم يجدون بصمات يستدلون منها على احتمال تأثر النصوص القرانية بالإنجيل لدى النصارى أو التلمود لدى اليهود. وتبلورت هذه النزعة فى القرن التاسع عشر، حيث اتخذ البحث والدراسة منحى علمى فى الظاهر. فنشرت عدة مؤلفات حول هذه المسألة يمكن حصرها فى صنفين:

اولا ـ كتب ذات نزعة يهودية وننكر منها:

١ ـ إبراهام جيجر: «ماذا أخذ محمد من النصوص اليهودية؟». بون ١٨٣٣، ط ٢ ليبزج ١٩٠٢م، إعادة طبع ١٩٦٩. Abraham Giger: was har Mohamad aus dem Jundenthume au fgenommen? (Bonn, 1933, 2 Aug. Leipzig 1902, Nachdruck 1969).

٢ ـ هارتفيج هيرشفيلد Hartwig Hirschfeld:

- العناصر اليهودية فى القران: برلين ١٨٧٨. Judische Elemente in Koran (Berlin 1878).

- إسهامات فى شرح القران: ليبزج ١٨٨٦. Beitrage zur Erklarung des Korans, (Leipzig 1886).

- بحوث جديدة فى فهم وتفسير القران: لندن ١٩٠٢. New Researches into the Composition and Exegesis of the Koran (London 1902).

٣ ـ سيدرسكى: اصل الأساطير الإسلامية فى القران: باريس ١٩٣٣. D. Sidersky: Les origines de Légendes musulmanes dans le Coran. (Paris 1933).

٤ ـ هاينريش سبرنجر: قصص الإنجيل فى القرآن: باريس، ط ٥، برلين وليبزج ١٩٢٦. Heinrich Sprenger: Die Biblischen erzáhlungen im Qoran. (Gràfenhaischer, sd, Berlin und Leipzig, 1926).

٥ ـ جوزيف هوروفيتز: بحوث قرانية: برلين وليبزج ١٩٢٦. Joseph Horoivitz: Koranische Untersuchumgen (Berlin und Leipzig 1926).

● الأسماء اليهودية ومشتقاتها فى القرآن: حوليات الكلية العبرية، المجلد الحادى عشر، عام ١٩٢٥، ص ١٤٥ ـ ٢٢٧ م. هيلد سهيم، إعادة طبع ١٩٦٤. Jewishc proper Names and derivatives in the Koran. (Hebrew College Annual, Vol. 11, Ohio 1925. p 145 - 227, Nachdruck Hildesheim, 1964).

٦ ـ إسرائيل شابيرو: عناصر فى رواية القرآن: برلين ١٩٠٧م. Die Haggadischem Elements in Erzàhl. Teil de Korans (Berlin 1907).

ثانياً ـ الكتب ذات التوجه المسيحى التى يمكن أن نذكر منها:

١ ـ ريتشارد بيل: أصل الإسلام فى بيئته المسيحية: طبع فى لندن ١٩٢٦ واعيد طبعه عام ١٩٦٨. Richard Bell: The origin of Islam in its christian environnemeut, (London, 1926, Reprint 1968).

● مدخل إلى القرآن: اندنبرج ١٩٥٣. Introduction to the Qurán, Endinburg, 1953.

٢ ـ تور أندريه: أصل الإسلام والمسيحية: أوبسلوا ١٩٢٦. Tor Andrae: Der ur-sprung das Islam und Christentum (Upsola 1926).

علينا الآن أن نتوجه بالبحث فى المنهج المتبع فى كل هذه الكتب التى اجتمعت كلها على إرجاع أصل القرآن إلى نصوص أخرى فى الكتب المقدسة.

لقد اتبع هؤلاء المستشرقين منهجاً عاماً مفاده أن محمد (ﷺ) الذى يتهمونه بتأليف

القرآن، قد استقى واستعار من الكتب المقدسة وشبه المقدسة المسيحية واليهودية أغلب القصص والصور المجازية والأمثال والحكم.

وطبقاً لهذه المزاعم يفترض إذن في محمد (ﷺ) إتقانه للغة العبرية والسريانية واليونانية. كما يفترض أيضاً أنه قد امتلك مكتبة ضخمة تضمنت على نصوص التلمود، والأناجيل ومختلف كتب الصلوات وقرارات المجالس Decisions des Conciles، وكذلك على بعض أعمال الأنبياء اليونانيين ومختلف الكنائس والمذاهب المسيحية!

ومما لاشك فيه أن هذه الافتراضات التي تطرحها ضمنياً كتب هؤلاء المستشرقين غير معقولة. فحياة النبي محمد (ﷺ) معروفة قبل الدعوة مثلما هي معروفة بعدها لدى الجميع؛ على الأقل في جوانبها الخارجية. ولم يرد قط لدى المعاصرين أو القدامى على حد سواء أن النبي محمد (ﷺ) قد امتلك مكتبة ما أو قد أتقن لغة أخرى غير العربية.

ومما يلفت النظر كذلك في كتب هؤلاء المستشرقين هو إصرارهم على النظر للقرآن كنص مسروق كلما وجدوا فيه حقيقة معرفية تضمنتها الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية.

وكان على القرآن، حتى لايقذف بتهمة السرقة، أن يحمل في طياته حقائق مخالفة للعلم وللمعقول! وكلما عثر هؤلاء المستشرقين في القرآن على كلمة مشابهة لكلمة أخرى وردت في الكتاب المقدس سارعوا إلى استنتاجات كلها خاطئة في أساسها. وإني أتساءل: كيف استطاعوا، وهم الذين يدعون العلم أن يوقعوا أنفسهم في مثل هذه السخافات؟!

وربما كان المستشرق هارفيتج هيرشفيلد أكثرهم شغفاً بهذه اللعبة العقيمة. وحتى نكتشف مدى مغالاتهم وجريهم وراء استنتاجات مغلوطة بدافع الإساءة إلى الإسلام لا بدافع العلم، سنتناول أطروحاتهم بالبحث الواحدة بعد الأخرى.

مزاعم هيرشفيلد Hirschfeld (١٨٥٤ - ١٩٣٤)

يدعى هذا الاخير اعتماداً على نصوص قرانية ونصوص من الإنجيل أن هناك تشابه وتوازى بين الاثنين. وعلينا الآن أن نتفحص بعض ما أملى به من ادعاءات على ضوء النصوص التى لجأ إليها لإثبات أطروحته.

١

سورة الرحمن	سفر المزمور ١٣٦ (العهد القديم)
الآية ٥: الشمس والقمر بحسبان	٨: الشمس لحكم النهار.
الآية ٦: والنجم والشجر يسجدان	٩: القمر والكواكب لحكم الليل.
الآية ٧: والسماء رفعها	٥: الصانع السموات بفهم.
الآية ٩: والأرض وضعها للأنام	٦: الباسط الأرض على المياه.

إننى ادعو القارىء للإمعان فى النصين القرآنى والإنجيلى ليحاول معى إيجاد اى تشابه يذكر. كيف اوجد هيرشفيلد تشابهاً بين فقرتين لاعلاقة لهما ببعضهما؟ فالقران يذكر الطابع الدورى لحركة الشمس والقمر، بينما لايذكر المزمور شيئاً عن هذا الموضوع.

ورد فى القرآن أن النبات والأشجار تسجد لله، بينما لانجد هذه الفكرة فى المزمور الذى يتحدث بعد ذلك عن الحكمة التى خلق الله بها السموات. لكن القران لايذكر سوى ان الله رفع السماء.

أما فى الآية القرآنية التاسعة من هذه السورة فقد ورد أن الله بسط الأرض لصالح الإنسانية جمعاء. فى الوقت الذى تتحدث فيه الآية السادسة من المزمور عن حالة جغرافية بسيطة وهى أن الأرض ممتدة فوق المياه.

اين إذن التشابه بين سورة الرحمن وبين نصوص المزامير التى وردت فى العهد القديم؟

اى تهيؤات جعلت هيرشفيلد يؤمن بوجود تشابه، وبالتالى سرقته؟

٢

نفس التهيؤات المرضية دفعت هيرشفيلد للقول إن هناك تشابه بين سورة النحل والمزمور ١٠٤، وأنها بالتالى مستعارة منه.

(أ)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ٢: ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن انذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون	٤: الصانع ملائكته رياحاً وخدّامه ناراً ملتهبة

يتناول القرآن فى هذه الآية مسألة إرادة الله المطلقة فى أن يختار من يشاء من بين عباده ويضع على عاتقه عبء النبوة، وفى أن ينزل عليه ملاكاً، مثل جبريل، حاملاً رسالة الله.

بينما يتحدث المزمور ١٠٤ فى الآية ٤ عن مجرد ظواهر طبيعية وفزيائية. أين وجد هيرشفيلد إذن التشابه؟

ونواصل رحلتنا مع هيرشفيلد ومع التشابه المزعوم بين سورة النحل والمزمور ١٠٤.

(ب)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ٣: خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشكرون	٢: اللابس النور كثوب الباسط السموات كشقّة. ٥: المؤسس الأرض على قواعدها...

اسأل نفسى مرة اخرى بحيرة: كيف رأى هيرشفيلد تشابهاً بين النصين؟ وكيف استطاع أن يوازى بينهما؟ بينما هما مختلفان كل هذا الاختلاف.

تتحدث الآية القرانية عن حكمة وقوة الله الذى خلق السموات والأرض فى انسجام تام ودون أن تسقط الأولى على الثانية. مما يثبت أن الله وحده لاشريك له. ويكتفى المزمور فى المقابل بتشبيه السماء بسجف أو ستار وبالتأكيد على أن الأرض مؤسسة على قواعد ثابتة.

(جـ)

سـورة النحل	المزمـــور ١٠٤
الآية ١٠: هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجرٌ فيه تُسيمون	٣: المسقف علاليه بالمياه الجاعل السحاب مركبته الماشى على اجنحة الريح

من البديهى أن النصين يتناولان مسائل مختلفة. إذ يذكر القران تلك المنفعة التى نفع الله بها الناس والمتمثلة فى الماء. أما المزمور فيتطرق للمنازل والسحب والرياح التى يمتطيها الله.

أضف إلى هذه التباين الشاسع كون آية المزمور فى غاية المادية. أى أنها تصف الله بصفات مادية مجسدة على نحو مذهب التشبيه (الانثربومورفيزم) الذى يتصور صفات الله على غرار صفات الإنسان. وهو مايتنافى مع التصور الإسلامى عن الله سبحانه وتعالى. وبالتالى يستحيل أن توجد فى القران آية معادلة لآية المزمور.

(د)

سـورة النحل	المزمـــور ١٠٤
الآية ١٠: ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون	١٤: المنبت عشباً للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان لإخراج خبز من الأرض ١٥: وخمر تفرح قلب الإنسان لإلماع وجهه أكثر من الزيت وخبز يسند قلب الإنسان

يتحدث القرآن هنا عن المطر الذى ينبت الزرع، بينما يتحدث المزمور عن كون الله ينبت العشب، دون ذكر المطر. كما أن القرآن فى هذه الفقرة لم يذكر الخمر «التى تفرح قلب الإنسان لإلماع وجهه اكثر من الزيت» إذ ان هذا يتعارض تماماً مع نص قرآنى اخر (سورة البقرة الآية ٢١٩، وسورة المائدة الآية ٩٠). كما أن المزمور تعرض لعموميات بذكره النبات بصفة عامة بينما فصل النص القرآنى ذاكراً الزيتون والنخيل والأعناب.

فإن لم يكن النصين القرآنى والإنجيلى متعارضين تماماً فإنهما مختلفان كل الاختلاف.

(هـ)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ١٤: وهو الذى سخَّر البحر لتاكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون	٢٥: هذا البحر الكبير الواسع الأطراف هناك دبابات بلا عدد صغار حيوان مع كبار ٢٦: هناك تجرى السفن لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه

يتناول النصان موضوع البحر بشكل مختلف. إذ يذكر القرآن منافع مافى البحر من سمك وطرق مواصلات على أنها هبة من الله لعباده.

ويكتفى المزمور بوصف البحر قائلاً إن الله خلق الليفاثان (التنين) ليلعب معه.

(و)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ٣٨: واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت.	٢٩: تحجب وجهك فترتاح. تنزع ارواحها فتموت وإلى ترابها تعود

الآية ٦٨: أو لم يروا إلى ماخلف الله
من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين
والشمائل سجّداً لله وهم داخرون.

الآية ٦٥: والله أنزل من السماء ماءً
فأحيا به الأرض بعد موتها
إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون

الآية ٧٠: والله خلقكم ثم يتوفاكم....

أى تهيؤات دفعت هيرشفيلد إلى إيجاد تشابه بين كل هذه الآيات المفعمة بالأفكار وبين الآية القصيرة من هذا المزمور؟ كيف زعم أن الأولى مجرد صدى للثانية؟!

وقد ورد فى هذه الآيات القرآنية مسألة بعث الأموات. وأكد القرآن ذلك طالما أن الأرض تحيا بعد موتها بمجرد أن تروى بالماء. وعلى النقيض من ذلك نجد أن المزمور يتحدث عن الله الذى يسترجع روح الإنسان، أى عن الموت المطلق دون ذكر البعث.

(ز)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ٤٢: الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون.	٢٧: كلها إيّاك تترجى لترزقها قوتها فى حينه.

وهنا أيضاً فإن أقل مايمكن قوله؛ هو أن النصين يتناولان مسائل مختلفة. يحمل النص القرانى مفهوم العقيدة والصبر والاعتماد على الله. بينما يتطرق المزمور لأمل الناس فى أن يمنحهم الله زادهم. فالقران يتعرض لمثل عليا وقيم رفيعة حيث يركز المزمور فقط على احتياجات المعدة.

(ح)

سـورة النحل	المزمـور ١٠٤
ه يسجد مافى السموات افى الأرض من دابة للانكة وهم يستكبرون.	٣٣: اغنى للرب ف لإلهى مادمت

علاقة بين النصين السابقين لان الآية القرانية تشير إلى
، ومعها الملائكة تسجد لله. وبينما يتغنى شخص واحد
الخليقة كلها ترتل نفس التهجد لله.

الأنانية التى تحملها اسطر المزمور بالعالمية التى يقترحه

(ط)

سـورة النحل	المزمـور ١٠٤
خافون ربهم من فوقهم	٣٤: فيلذ له نشيدى

(ك)

المزمـــور ١٠٤	ســورة النحل
١٢: فوقها [الماء] طيور السماء تسكن ١٧: حيث تعيش هناك العصافير. اما اللقلق فالسرو بيته.	الآية ٧٩: الم يروا إلى الطير مسخّرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

يشير القران هنا إلى قدرته التى بها تحلق الطيور فى السماء متحدية قوانين الجاذبية مما يدل على قوته الإلهية. ويكتفى المزمور بوصف الطيور التى تلجا إلى منبع الماء وتبنى اعشاشها فى أغصان الشجر. لكن المزمور لم ينبس بكلمة عن القدرة الإلهية.



إن هذه الأمثلة التى عرضناها لكافية لتوضيح المنهج والتصور الذى تبناه هارفيج هرشفيلد فى كتابه: «بحوث جديدة فى فهم وتفسير القران»، لندن ١٩٠٢. New Researches into the Composition and Exgesis of the Qoran, London 1902.

لقد بذل هذا المستشرق مجهوداً جباراً لإثبات مزاعمه وادعاءاته، ولإيجاد تشابه وتوازى بين نصوص القران ونصوص الإنجيل حيث لايوجد اى مجال للمقارنة. وماهذا إلا دليل على انه كان ضحية تهيؤات مرضية سببها تعصب أعمى زاد فى شدته تعنت متعجرف.

ولقد تمادى فى الجنون والتعصب لدرجة انه اكد ان القرآن ماهو إلا نسخة مزورة من الإنجيل (نفس المرجع اعلاه، المقدمة ص ٢).

ونصادف نفس العمى المرضى ايضاً فى كتابه: «العناصر اليهودية فى القران»، الصادر فى برلين ١٨٧٨م. (Jüdische Elemente in Koran, Berlin 1878) وكذلك فى كتابه: «مساهمات لشرح القران»، ليبزج ١٨٨٦م. (Beiträge zur Erklärung des Korans (Leipzig, 1886)

ولقد علق بعض المستشرقين على اعمال هارفيج هيرشفيلد تعليقات عديدة نوجز بعضها فيما يلي:

يقول د. سايدرسكى D. Sidersky عند الإشارة للكتابين السابقين (العناصر اليهودية..) و(بحوث جديدة..): «للاسف لم يضف هذا العالم شيئاً ينكر فيما يتعلق بمصادر واصل الاساطير القرانية». (اصول الاساطير الإسلامية)، باريس ١٩٣٣، ص ٢، هـ ١. (Les Origines de légendes musulmanes, Paris 1933. p. 2. n. 1).

ويستشهد رودى باريت Rudi Paret فى الجزء الثانى من كتابه (القران، تعليق وتطابق)، شتوتجارت ١٩٧١، ص ١٢. (Der Koran, Kommentar und Konkordanz Stuttgart, 1971, p 12).

بكتاب هيرشفيلد (بحوث جديدة...) مشيراً إلى الصفحات ١٠١ و١٠٢، حيث علق على الأحرف التى تبدأ بها بعض السور القرانية، لكننا ننبه هنا القارئ، أن المرجع الذى استند عليه باريت خاطئ. لأنه كان عليه ان يرجع للصفحات ١٤١ ـ ١٤٢ وهى التى تناول فيها هيرشفيلد «نظرية الأحرف الاولى(؟)» "Theories of the Initials".

ويستشهد باريت مرة أخرى فى نفس الكتاب براى هيرشفيلد حول كلمة (حطة) التى وردت فى سورة البقرة الآية ٥٨ قائلاً: «ربما يرجع مصدر كلمة (حطة) إلى نص الاعتراف بالخطايا المتضمن فى المشنا «سفر يونان» (Yômà III, 8, n, 2, VI, 2).

إلا ان باريت لم يعلق على رأى هيرشفيلد الخاطئ. حيث إن نص المشنا المشار إليه لايحتوى على كلمة (حطة) ولا على اى كلمة اخرى تشبهها فى النطق. مما يثبت للمرة الالف أن إدعاءات هيرشفيلد مجرد هراء لأنها لاتقوم على اية براهين أو وثائق.

ويلجا باريت (ص. ١٩ ـ ٢٠) إلى اراء اخرى لشرح كلمة (حطة). ومايميز هذه الآراء هو التاكيد على ان كلمة (حطة) كلمة عبرية أو ذات أصل عبرى دون أن نتفق مع ذلك على الكلمة العبرية نفسها.

وتجدر الإشارة إلى ان المفسرين المسلمين قد شرحوا كلمة (حطة) بانها كلمة عربية معناها: «اغفر لنا اخطاءنا»، بحيث تكون العبارة كاملة: «حط عنا أوزارنا». اما بلاشير

Blachére فى ترجمته للقران فهو يترجمها بكلمة Pardon اى (غفران). ويدعى سبيير Speyer ان كلمة (حطة) ماهى إلا تحريف للكلمة العبرية حطنو Hâtanû التى جاءت فى الآية اربعين من كتاب موسى (العدد، الإصحاح ١٤) من العهد القديم «ثم بكروا صباحاً وصعدوا إلى رأس الجبل قائلين هو ذا نحن. نصعد إلى الموضع الذى قال الرب عنه فإننا اخطانا».

ولما كانت هذه الآية لاتتفق مع المعنى المقصود من كلمة «حطة»، قال سبيير ان محمداً «كان يعتقد أن اليهود الذى مافتئوا يرفضون الدخول إلى الأرض المقدسة قد حمّلوا الكلمة معنى اخر لتقوية عزيمتهم. ربما علينا ان نفكر فى كلمة «حطة» بمعنى (الحِنطة) كما وردت فى العهد القديم فى سفر التثنية الإصحاح الثامن «أرض حنطة» او بالعبرية ارس حطة "ars hitta". وبالتالى يمكننا ان نفسر الآية المذكورة اعلاه أن بنى إسرائيل قالوا «حطنو» hâtanû دون ان يقصدونها بالمعنى المباشر بل بمعنى ثمرة الأرض المقدسة وليس بمعنى امر الله». سبيير: (الحكايات الإنجيلية فى القرآن، ص ٣٣٧ ومابعدها). (Speyer: Die Biblischen Erzàhlungen in Koran, p 337. f).

هذا الاقتراح الذى تبناه سبيير مبالغ فيه ومعقد لدرجة يصعب معها الاقتناع به. فملخصه الآتى: عندما اقترب بنو إسرائيل من الأرض المقدسة تراجعوا عن عزمهم بعد ماسمعوه من انباء غير سارة نقلها لهم الرجال الذين بعثهم موسى يتجسسون على الأرض. لقد شعروا بالندم وتوجهوا إلى قمة الجبل قائلين: «فإننا قد اخطانا: حطنو hâtanû». لكنهم لم يقصدوا بهذه الكلمة بمعناها الحقيقى وإنما قصدوا بها المعنى الآخر اى (الحِنطة)»!!.

إنه فعلاً تفسير خيالى يفهم منه ان محمداً كان ملماً بثنايا اللغة العبرية! طالما استطاع أن يختلق هذا القصد. وفرضاً انه استقى هذا المعنى من يهود يثرب فإننا نتحدى اى شخص يعثر على مثله فى الكتب اليهودية.

لقد اظهر سبيير عبقرية مزيفة فى إثبات فرضية خاطئة فى اساسها وهى ان كلمة (حطة) ماهى إلا كلمة عبرية.

لكن عندما يختلق المرء كذبة ما، يصبح أسيراً لها؛ ويضطر بعد ذلك لمحاولة إثبات صحتها بكافة الوسائل. إن هذه الحالة تنطبق تماماً على هؤلاء المستشرقين الذين يطلقون على أنفسهم لقب علماء.

فموقف هؤلاء الباحثين اليهود ماهو فى حقيقة الأمر إلا نتيجة منطقية لتحيزهم وبحثهم المسعور عن بصمات عبرية ويهودية فى القرآن. حتى هوروفيتز Horovitz يعترف، وهو أيضاً من بين المتحيزين، أن التفسير الذى يقدمه هيرشفيلد وكذلك زميله ليزنسكى Laszynski (ص ٣٢ Die Juden) غير مقنع.

ونصل فى الخلاصة إلى أن الدراسات الثلاثة التى خصصها هيرشفيلد للعلاقة بين القرآن والنصوص المقدسة اليهودية غير ذات قيمة تذكر. لأنها مبنية على تشابه خاطىء وعلى تحيز مفضوح وعلى افتراضات مرتجلة ينقصها الفهم. إنه بفضل هذه «المزايا» أصبح استاذاً فى كلية الجامعة University College عام ١٩٢٤.

٢ ـ كليرمون جانو Clermont - Ganneau

تشبيه النور ـ (سورة النور الآية ٣٥)

لقد تعرض لهذا المثل (أو الصفة) Parabole مجموعة كبيرة من المستشرقين منهم:

● د. ب ماكدونلد مادة: الله، موسوعة الإسلام، الطبعة الأولى. D.B. Macdonald, art. Allàh (Encycl. of Islam, 1er edi).

● ر. بيل: جذور الإسلام، ص ١١٥. R. Bell: Origin of Islam, p 115 sqq.

● كليرمون جانو: المصباح وشجرة الزيتون فى القرآن. فى مجلة تاريخ الأديان، العدد ٨١، عـــام ١٩٢٠م، ص ٢١٣ – ٢٥٩. Clermont - Ganneau: La lampe et l'olivier dans le Coran (in Revue de l'histoire des religions 81, 1920, p 213 - 259).

● سبير: القصص الإنجيلية فى القرآن، ص ٦٢ ـ ٦٦. H. Speyer: Die Biblischer Erzàhlungen in Koran, pp 62 - 66 sqq.

● بهل: عن للقارنات والتشبيهات فى القرآن. (فرنز بهل: حول المفارقات فى القرآن الكريم، المجلة الشرقية، ٢، ١٩٢٤م، ص ١ - ١١). (Fr. Buhl: Vber verqleichungen und Gleichmisse im Qu'rân, in Acta Orientalia 2, 1924, p 1-11).

والحقيقة أن الأمر هنا فى كل هذه الكتب يتعلق لمثل أو تشبيه النور الإلهى الذى ورد فى سورة النور الآية ٣٥، التى جاء فيها: ﴿**الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم**﴾.

إن هذه الآية هى مرجع معظم الصوفية المسلمين وهى أساس كل مذاهب الإشراق فى الإسلام.

لنرى كيف أوجد العلماء الذين ذكرناهم أعلاه علاقة بين النص القرآنى والنصوص الإنجيلية.

يقول ماكدونالد: «يبدو من خلال السياق أن هناك إشارة إلى الخدمة الإلهية المتبعة فى الكنائس والأديرة. وتكون الصورة فى هذه الحالة مأخوذة من الهيكل فى الكنيسة Autel المغمور بالأنوار. ثم أن العبارات القرآنية قد تكون ذات علاقة «بنور الكون» فى الإنجيل و«بنور النور» فى الإعلان العقائدى لمجمع نيقيا "La pofession de foi du Concile de Nicée".

ونحن لايمكننا أن نمر على هذا الإدعاء دون أن نسجل تحفظات عديدة:

● **أولاً**: أن أنوار الهيكل فى الكنيسة متعددة، بينما لم يرد فى الآية القرآنية سوى نور كثير يفيض على السموات والأرض.

● **ثانياً**: فى إعلان العقيدة الذى ذكره ماكدونالد كتب أن الله هو Phôs ek phôtis نور يأتى من نور. وجاء فى النص القرآنى ﴿**نور على نور**﴾ أى نور خالص. فالمعنى إذن مختلف فى النصين.

● **ثالثاً:** لقد درج شعراء الجاهلية مثل امرؤ القيس على وصف مصابيح الرهبان التى يهرب منها النور وكأنه يتسلل من وحدة الاعتكاف والعزلة. ولم يكن النبى محمد ليستعير هذا التشبيه السائد انذاك ويصف النور الإلهى. لأن ذلك يكون بمثابة الكفر.

نؤكد لهذه الأسباب الثلاثة أن طرح ماكدونالد خاطئ.

ويقدم المستشرق كليرمون جانو Clermont - Ganneau طرحاً اخر زاعماً انه اكتشف تشابه بين الآية القرانية وبين فقرة من كتاب زكريا من العهد القديم، الإصحاح الرابع الآيات ١ - ٣ حيث يقول: «فرجع الملاك الذى كلمنى وايقظنى كرجل أوقظ من نومه. وقال لى ماذا ترى؟ فقلت قد نظرت وإذا بمنارة كلها ذهب وكوزها على راسها وسبع سروج عليها وسبع انابيب للسرج التى على راسها. وعندها زيتونتان إحداهما عن يمين الكوز والأخرى عن يساره. فاجبت وقلت للملاك الذى كلمنى قائلاً ماهذه ياسيدى؟ فأجاب الملاك الذى كلمنى وقال لى اما تعلم ماهذه؟ فقلت لا ياسيدى. فاجاب وكلمنى قائلاً. إنما هى أعين الرب الجائلة فى الأرض كلها. فأجبت وقلت له ماهاتان الزيتوناتان عن يمين المنارة وعن يسارها؟ فقال هاتان هما ابنا الزيت الواقفان عند سيد الأرض كلها».

يظهر جلياً مما سبق ان كل من النصين القرانى والإنجيلى لايتشابهان.

حيث نجد ان سفر زكريا يصف شمعداناً من ذهب يعلوه كوز يحمل سبعة مصابيح، وعلى يمينه وشماله شجرتا زيتون. ولا نجد اثراً لهذا فى الآية القرانية. حيث أن مجرد الحديث عن سبع مصابيح يتعارض تماماً والنص القرانى الذى لم يذكر سوى مصباح واحد؛ لأن الله واحد وليس سبعة ولم يتحدث إلا عن شجرة زيتون واحدة. فهذه الشجرة: **﴿لا شرقية ولا غربية﴾** لانها روحية. فما ابعد فقرة سفر زكريا عن الآية القرانية!

ويبدو ان كليرمون - جانو قد حاول التراجع قليلاً عن الرأى الذى ادلى به اعلاه لما ادرك الفرق الشاسع بين النصين. فقال «إن كان محمد قد استوحى من التقاليد اليهودية والمسيحية جوهر مثله فإنه على مايبدو قد اثر الابتعاد عنها عن قصد فيما يتعلق بشكل النور الذى يحتل فى كل النصين مكانة هامة. وبالتالى لختفى فى النص القرانى الشمعدان ذا الفروع السبعة الذى ظهر لزكريا فى رؤياه» (نفس المرجع، ص ٢٤٦).

ماذا يبقى إذن بعد هذا من رؤيا زكريا؟ لم يبق سوى مصباح. وهذا غير كلف بالمرة للتأكيد على أن هناك تقارب وتشابه بين فقرة سفر زكريا وبين الآية القرانية.

ولم يساعد كليرمون جانو لجوئه على إثبات ان محمد قد استعار صورة النور من مشهد المصابيح المتلألئة فى الكنيسة القسطنطينية والكنائس الأخرى بالقدس (ص ٢٣٨). لأنه يعترف شخصياً بأن النبى محمد لم تطأ قدمه القدس لا كزائر او كحاج (ص ٢٤٣). ولما خانته كل السبل لجأ إلى الإدعاء بأن تميم الضارى هو الذى لقن لمحمد كل المعلومات عن الطقوس اليهودية حيث يقول: «يبدو انه كان لتميم الضارى تأثير كبير على فكر محمد وعلى بعض افعاله (ص ٢٤٧).. وان محمد استفاد من معلومات تميم إلى أن اكتملت له الصورة عن المعتقدات والتقاليد والمراسيم المسيحية الشرقية» (ص ٢٤٨).

على ما يبنى كليرمون جانو إذن زعمه؟ الواضح انه لايبنيه على شيء محدد، حيث لم يقدم أى مرجع؛ ولم يعط اى برهان، إن الأمر هنا لايعدو ان يكون مجرد توهمات صنعها خيال تائه.

٣ - جوزيف هورفيتز Josheph Horovitz

١ ـ ﴿أيّام الله﴾ (سورة إبراهيم الآية ٥، وسورة الجاثية الآية ١٤).

يؤكد هورفيتز فى كتابه «دراسات قرانية» Koranische Untersuchungen, p 22 ان هناك تشابهاً بين عبارة «أيام الله» وعبارة ميلهامت ياحوا Milhamôt yahwa العبرية التى وردت فى سفر العدد الإصحاح ٢١ الآية ١٤. حيث يقول «مثلما تذكر سورة هود فى الآية ٩١ شعيب بتعاليم أجداده فإن سورة إبراهيم تأمر موسى صراحة بتذكير شعبه «بايام الله». وماهذه العبارة إلا تعريب لكلمة مليهاموت ياحوا التى جاءت فى سفر العدد الإصحاح ٢١، وقد حصل هذا التعريب بالقياس مع ماهو معروف بايام العرب».

كيف توصل هورروفيتز إلى هذه النتيجة؟ لا ندرى، اما هو فلم يفسر كيف توصل لذلك. هذا هو نص سفر العدد الذى استشهد به هورروفيتز «لذلك يقال فى كتاب حروب الرب (ميلهاموت ياحوا) واهب فى سوفه وأودية أرنون». إن هذا النص هو الجزء الوحيد المتبقى

من مقتطفات النصوص الملحمية اليهودية. ويوضح هذا النص الآية ١٩ التى تقول إن الأرنون هو نقطة حدود مواب فى الشمال وفيما عدا هذا فإن النص لاينكر شيئاً عن اى يوم من أيام الله.

كيف يمكن إذن أن يكون محمد قد استلهم منه عبارة أيام الله؟

هل يكون محمد قد علم بمحتوى قصة حروب الله التى لايعلم تفاصيلها اليهود انفسهم والتى لم يتبق منها سوى هذا الجزء من الآية ١٤ من الإصحاح الواحد والعشرون من سفر العدد؟!

ياله من اختلال فى التفكير! وقد تميز هوروفيتز ببراعته فى هذا المجال.

تفسر المعاجم العربية عبارة «أيام العرب» بأنها: الحروب، والصراعات والمعارك. ويقال فى هذا السياق «عالم ملم بحروب العرب» اى انه على علم بها. وجاء فى لسان العرب «اما عن عبارة ايام الله فى الآية ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ فمعناها، ذكرهم بنعم الله التى أنعم فيها عليهم وبنقمه التى انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود.

وقال الفراء: معناه خوِّفهم بما أنزل الله بعاد وثمود وغيرهم من العذاب وبالعفو عن اخرين.

وقال مجاهد فى قوله تعالى ﴿لايرجون ايام الله﴾، قال نعمه. وروى عن ابىّ بن كعب عن النبى (ﷺ) فى قوله تعالى ﴿وذكرهم بأيام الله﴾، قال: نعمه. (لسان العرب لابن منظور، انظر يوم).

يستنتج من هذا الشرح أن علماء اللغة العرب لم يقرنوا بين عبارتى ايام الله وأيام العرب ولم يروا فيهما اى تقارب.

وأيام الله لدى هؤلاء العلماء هى نعمة ونقمة يتواليان مثلما تتوالى الأيام.

ووجه التشابه الوحيد فى الحالتين هو توالى الأيام فلكياً وتوالى نعم الله ونقمه. إنه شرح واضح وبسيط. فلماذا إذن البحث عن أصل العبارة فى نص مفقود ذكر بصورة مبهمة فى سفر العدد؟

٢ ـ الكلمات المشتقة:

فى كتابه الصغير «أسماء الأعلام اليهودية والاشتقاقات فى القرآن» (٨٣ صفحة). Jewish Propers Names and Derivatives in the Koran (Ohio, 1925 Nachdruck Olms, Hildesheim 1964). يحاول هوروفيتز جاهداً إثبات أن الكلمات القرآنية : «المتكفات، أمر، أمانة، بركة، تبارك، بهيمة، مثانى، خلاق، رب العالمين، سكينة، صدقة، عزر، قيوم، كفارة، ماعون، منهاج، جبار، ربانى، سفك الدماء، قدوس، سورة، نبوة، بعير، عبادة، بور، صديق، جنات عدن، عليون، تزكى» مشتقة من العبرية وأن محمد تعلمها من اليهود فى مكة وفى المدينة خاصة.

إن هذه الإدعاءات الخطيرة تستوجب منا وقفة حاسمة لنسجل الملاحظات الآتية:

أولاً: إن العربية والعبرية لغتان ذات جذع واحد وهو الجذع السامى. مما يجعل المساحة المشتركة بينهما واسعة. وبالتالى فإن احتواء القرآن على مصطلحات بين العربية والعبرية لايعنى بأى حال من الأحوال أن محمداً قد استعارها من اليهود الذين عاصروه.

فمن المحتمل إذن أن تكون هذه المصطلحات قد تشكلت فى المخيلة العربية أجيالاً قبل الرسول لتصبح جزءاً لايتجزأ من الثروة اللغوية العربية.

ثانياً: بما أن تاريخ اللغة العربية قبل الإسلام يكاد يكون مجهولاً بسبب نقص النصوص المكتملة فإنه يصعب تحديد مصدر هذه الكلمات. هل أخذت من اللغة العربية إلى العبرية أو العكس. فلم يصلنا من فترة الجاهلية سوى بضع قصائد شعرية مشكوك فى أصحابها، وفى أصالتها، ومخطوطات نادرة وقصيرة تناولت مواضيع لا تسعفنا فى بحثنا هذا.

لهذا لايمكن الجزم بأن محمد قد استعار هذه الكلمات من اليهود.

وهاتان الحجتان كافيتان فى اعتقادنا لدحض أى محاولة للخوض فى هذا المجال.

سنبحث الآن فى بعض هذه الكلمات لنثبت بالحجة والبيان أن إدعاءات هؤلاء المستشرقين لا أساس لها من الصحة.

أولاً: كلمة خلاق = نصيب، التى وردت فى سورة البقرة الآية ٢٠٠ ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾.

يدعى هريشفيلد خطأ فى كتابه «ابحاث جديدة» "New Researches" ان نفس العبارة جاءت فى ميشنا سنهدرين Mishna Sanhadrin الذى وردت فيه كلمة (إن لاَ هِمْ حيلِيَقْ مِنْ هَاعُولاَم) لهم جزء من العالم ên lâhem heleq là-olâm.

اما هوروفيتز فيضيف قائلاً: «مع هذا فإن شكل الكلمة العربية غريب نوعاً ما، والألف المدودة تجعلنا نعتقد بأنها مشتقة من اللغة الارامية حيث نجد نفس الكلمة بشكل «حولاق» "hulâq"، ولهذا نفترض ان محمد قد اطلع أولاً على الكلمة فى اشكال مركبة مثل أنْ حيليقْ مِنْ هَاعُولاَم (انت جزء من العالم) "hulâq àlma de-âtê". (سفر التكوين ٢٥ : ٣٤) Targum jer. Genesis 25:34.

ومثل عبارة جزء من عالم (جنة) عَدَنْ (حِيلقَات ميعولا لْم عِدِنْ) (Targums Esther 11.2:7) hulâka be âlma hâden v.be âlma de - âtie

اى ان محمداً اطلع على الكلمة من خلال نصوص التاملات اليهودية. كما ان كلمة "hulâq" مستعملة لدى المسيحية اليهودية بمعنى نصيب. لكن هذه الكلمة غير مستخدمة هناك بمعنى «نصيب فى الآخرة». (هوروفيتز: الاعلام اليهودية...) (Horovitz, Jewish Proper Names, pp 138, 133: pp 54-55 Nachdruck)

وخلاصة الموضوع الذى نحن بصدده هى كالآتى: طبقاً لما يقوله هيرشفيلد يكون محمد قد اطلع على المشنا، وهذا يفترض إتقانه للغة العبرية. أما طبقاً لهوروفيتز فإن محمد كان على علم بنصوص التاملات اليهودية (ترجمة Targums) وبالتالى على علم كذلك باللغة الآرامية! اهذا معقول؟

ويكفينا ان نعود إلى لسان العرب ونبحث عن كلمة خلق للتاكد من ان كلمة خلاق حملت معنى «نصيب» لدى الشاعر حسان بن ثابت؛ الذى كان ينظم الشعر قبل لقاءه بالرسول. مما يدل على ان كلمة خلاق كانت شائعة لدى العرب قبل الإسلام. فما جدوى

البحث عن أصلها فى اللغة العبرية أو اللغة الارامية، فالمسألة تتلخص فى الآتى: الكلمة العبرية حلق Heleq والكلمة العربية خلاق كلاهما ذات أصل واحد وتعنيان «نصيب». هذا كل مافى الأمر.

ثانياً: نفس التحليل ينطبق على كلمة بعير التى وردة فى سورة يوسف الآية ٦٥ ـ ٧٥.

لكن المستشرق دفوراك Dvorak (تقارير الاجتماعات الأكاديمية فى فيينا ـ قسم الفلسفة والتاريخ، المجلد التاسع، ص ٥٢٢) (Sitzungoberichte der Wiener Akade-mie Philos - hist. Klasse, Vol. IX, p 522 sqq).

يزعم أنها مشتقة من اللفظ العبرى ببعير be'īr (الماشية) الذى جاء ذكره فى سفر التكوين (١٧:٤٥).

لكن هوروفيتز يعلق قائلاً: «طبقاً لهذا الراى فإنه يفترض ان الكلمة التى وردت فى النص العبرى قد وصلت إلى مسمع محمد وظلت عالقة بذاكرته ليعطيها بعد ذلك المعنى العربى لبعير أى الإبل. ويستعمل محلها كلمتى (جمل) او (ناقة) فى مواضع أخرى من القرآن. هكذا لم تعد الكلمة تحمل معنى (الحمار) لأن هذا الحيوان لايصلح فى نظر العرب كمطية للشرفاء ولعلية القوم». Horovitz Proper Names... pp 132 - 133 : 48 - 48 Nachdruck.

جاء فى سفر التكوين ١٧: ٤٥ الذى اشار إليه هوروفيتز كلام فرعون ليوسف حيث قال: «قل لإخوتك افعلوا هذا. حمّلوا دوابكم وانطلقوا إلى أرض كنعان»، وقد وردت كلمة دوابكم فى الأصل العبرى: بعيركم.

وعندما نرجع إلى لسان العرب نجد أن كلمة (بعير) تعنى: إما الجمل البازل (القوى) وإما الحمار.

ويذكر ابن منظور نقاشاً دار بين ابن خالويه والشاعر المتنبى بمجلس الأمير سيف الدولة الحمدانى «كان السائل ابن خالويه قائلاً ما المراد من كلمة بعير فى القرآن؟ فاضطرب المتنبى. فقلت المراد بالبعير فى قوله تعالى: ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾: الحمار.

وهو أن البعير في القرآن الحمار، وذلك أن يعقوب وأخوة يوسف عليه السلام، كانوا بأرض كنعان وليس هنا إبل وإنما كانوا يمتارون على الحمير. وقال الله تعالى: ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾، وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره. وفي زبور داود: إن البعير مايحمل ويقال يحمل بالعبرانية بعير. وفي حديث جابر: استغفر لي رسول الله (ﷺ) ليلة البعير خمساً وعشرين مرة، هي الليلة التي اشترى فيها رسول الله (ﷺ) من جابر جمله وهو في السفر».

ولقد كتب مقاتل بن سليمان المتوفي في آخر القرن الثاني الهجري عام ١٥٠ هـ/ ٧٦٥م، تفسيراً للقرآن قد توجد منه نسخة في المتحف البريطاني. جاء فيه أن كلمة بعير في القرآن وردت بمعنى الحمار. كما يذكر لسان العرب بيتاً شعرياً لأحد لصوص البادية المشهورين في عهد عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٦هـ) اسمه يزيد بن الصُّقَيل العقيليّ استخدم فيه لفظ أباعير وهو جمع بعير.

كل هذه الأمثلة تؤكد أن كلمة بعير كلمة عربية وجدت واستعملت قبل الإسلام وكانت شائعة بمعنى الجمل أو الحمار. مافائدة الإدعاء إذن أن محمداً استعارها من سفر التكوين ٧١: ٤٥؟

٣ ـ كلمة بهيمة، وقد وردت في سورة المائدة الآية الأولى وسورة الحج الآية ٢٨ ـ ٣٤.

يقول هوروفيتز في كتابه: Proper Names... p 183 : 43 Nachdruck: «إن هذه الكلمة قد تكون مشتقة من الكلمة العبرية "Bêhêmâ"»، ويضيف: «إن هذه الكلمة لم تستعمل على مايبدو في الشعر الجاهلي».

نرد على هذا بالملاحظات التالية:

أولاً: إن كلمة بهيمة مقرونة دائماً في القرآن بكلمة (الأنعام). وإن كانت مشتقة من العبرية فذلك يعني أن القرآن فيه تكرار لا طائل منه. والمراد من كلمة (بهيمة) في القرآن هو: ذا اللون الواحد الخالص لا تتخلله ألوان أخرى، ويمكن أن يكون هذا اللون أبيض أو أسود.

لكن غالباً ماتطلق هذه الكلمة على الحيوان ذا اللون الأسود (انظر لسان العرب). وقد تستخدم مجازاً حيث يقصد بها حينئذ: الصافي، كما جاءت في بعض الاحاديث التى ذكرها لسان العرب.

ثانياً: لنفرض ان هذه الكلمة لم تذكر فى الشعر الجاهلى، وهذا ما لم يثبت بصفة قاطعة. ربما اتاح لنا معجم فيشر Fischer فرصة التحقق من ذلك. لولا أنه لم يصدر بسبب تعنت اعضاء مجمع اللغة العربية فى القاهرة.

المهم أن الكلمة وردت عدة مرات فى أحاديث نبوية بمعنى: الصافى ذا اللون الواحد. أى أن الكلمة استعملت دائماً كصفة وليس كاسم.

٤ ـ كلمة (سورة)، وقد جاءت فى سورة التوبة (الآية ٦٤ ـ ٨٦، ١٢٤، ١٢٧) وسورة النور (الآية الأولى)، وسورة غافر (الآية ٢٢).

وقد كان المستشرق نولدكه Noedelae اول من ادعى فى كتابه (تاريخ القران) Geschichte de Qorans, p. 24 - Neue Beitràge, p. 26 ان كلمة (سورة) مشتقة من الكلمة العبرية shûrâ حيث المراد بها: الخط، الصف، الطابور. ولم ترد ابداً بمعنى الفقرة من كتاب. ولهذا نبادر ونقول إن فرضية نولدكه خاطئة.

أما هيرشفيلد فيقترح فرضية أخرى فى كتابه السابق الذكر (ابحاث جديدة، ص ١١٣) New Researches, note 6, p 113, note 81 مفادها ان كلمة (سورة) ماهى إلا قراءة خاطئة لكلمة ارمية هى Sidrâ.

ويأتى بعده هوروفيتز ليرفض هذه الفرضية جملة وتفصيلاً قائلاً: لايمكن اخذها فى الاعتبار.

اما فقهاء اللغة العرب فلم يتفقوا على أصل كلمة (سورة).

ـ فهناك من يردها إلى سورة المبنى أى بمعنى المنزلة.

ـ وهناك من يقول إن أصلها يعود إلى كلمة السؤر أى بقية الشىء.

- وهناك من يشير إلى أن كلمة (سورة) معناها المرتبة العليا.

لكن كل هذه التفسيرات غير مقنعة وتظل المشكلة مطروحة سواءً لدى المستشرقين او لدى فقهاء اللغة القدامى.

٥ - مشكلة كلمة (مثانى) تظل هى الاخرى مطروحة:

(أ) ووردت فى سورة الحجر الآية ٨٧: **﴿ولقد اتيناك سبعاً مثانى والقران العظيم﴾.**

(ب) وفى سورة الزمر الآية ٢٣: **﴿الله انزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾.**

يتقدم المستشرق مولر فى كتابه «الانبياء واوجه مصداقيتهم» D.H. Mueller (Die Prophten und ihre ursprunglischen form, 1, p 42 - 46 note 2) بادعاء فحواه ان المراد من كلمة (مثانى) هو الأساطير وبالتالى المثانى السبع ماهى إلا الأساطير السبع لـ: «موسى، إبراهيم، نوح، صالح، لوط، وشعيب». ويتناسى مولر ان القران يحتوى على قصص عدة أنبياء آخرين. فلماذا إذن حصر القصص فى السبع المذكورة؟

ولهذا السبب اعترض نودلكه على هذا الطرح معتنقاً الآراء الشائعة لدى المفسرين العرب. وهى أن (المثانى السبع) هى الآيات السبع من سورة الفاتحة (إضافات وتنقيحات Neue Beitrage, p 261).

اما جيجر Geiger فقد فضل البحث عن اصل كلمة (مثانى) فى الكلمة الآرامية - اليهودية Mathnitha والمقصود بها التقليد او العرف. لكن هذا الطرح لايضيف شيئاً فيما يتعلق بتفسير عبارة (المثانى السبع)، اللهم إذا رجعنا ثانية إلى رأى مولر الذى سبق تفنيده.

ولم يتفق المفسرون العرب بدورهم على معنى واشتقاق كلمة (مثانى)، ويلخص لسان العرب هذه المسألة كالآتى: «المثانى فى القران هى ماثنى مرة بعد مرة. وقيل: فاتحة الكتاب وهى سبع آيات، قيل لها مثانى لأنها يثنى بها فى كل ركعة من ركعات الصلاة وتعاد كل ركعة.

وقيل المثاني في سور أولها البقرة وآخرها براءة وقيل: ماكان دون المئتين، قال ابن بريّ: كان المئتين جعلت مبادئ، والتي تليها مثاني، وقيل هي القرآن كله، ويدل على ذلك قول حسان بن ثابت: من للقوافي بعد حسان وابنه؟ ومن للمثاني بعد يزيد بن ثابت؟ وقال أبو عبيد: المثاني من كتاب الله ثلاث أشياء، سمى الله عز وجل القرآن كله مثاني في قوله عز وجل: ﴿الله انزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾ وسمى فاتحة الكتاب مثاني في قوله: ﴿ولقد اتيناك سبعاً من المثاني والقران الكريم﴾. قال وسمى القرآن لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه، ويسمى جميع القرآن مثاني أيضاً لاقتران اية الرحمة باية العذاب» (لسان العرب، انظر: ثنى).

٤ ـ هاينريش سبيير Heinrich Speyer

لقد تتلمذ هاينريش سبيير على يد جوزيف هوروفيتز. فحمل على عاتقه مهمة إكمال تلك البحوث التي بدأها استاذه. وخاض بحثاً واسعاً من ٥٠٩ صفحة بعنوان (القصص الإنجيلية في القرآن) طبع عام ١٩٣١ ثم اعيد طبعه عام ١٩٦٦١. Die Bibilicen Erzàhlung im Qoran. 1er edi 1931. 2eme edi Nachdruck Georg Olms, Hildesheim 1961. وراح يعلن عن اكتشاف الأصل اليهودي لقصص الأنبياء التي وردت في القرآن. فقسم كتابه إلى عدة فصول تناولت هذه الموضوعات على التوالي: بدء الخليقة، ادم، ابناء ادم، نوح، قصة بناء قلعة بابل، إبراهيم، يوسف، موسى، الرسل بعد طالوت، داود وسليمان، الإنجيليون القدامى، الرسل، المثل في القرآن، المقاطع والإشارات الخاصة بكتب الإنجيل وبالتلمود.. إلخ.

وحيث أنه لايهمنا في هذا المقام سوى الموضوع الأخير من هذا لكتاب سنركز عليه نقاشنا. وسيظهر جلياً بعد ذلك مدى بعده عن الحقيقة وغرقه في المغالاة وضعف بصيرته تماماً مثلما هو الحال بالنسبة لهارفيج هيرشفيلد.

أولاً: ﴿مثل الجنتين﴾ الذي جاء في سورة الكهف، الآيات من ٣٢ إلى ٤٣.

﴿واضرب لهم مَثَلاً رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً * كلتا الجنتين اتت أُكُلَها ولم تظلم منه شيئاً

وفجّرنا خلالهما نهراً • وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره انا اكثر منك مالاً واعزّ نفراً • ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن ان تبيد هذه ابداً • وما اظن الساعة قائمة ولئن رُددتُ إلى ربى لاجدن خيراً منها منقلباً • قال له صاحبه وهو يحاوره اكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً • لكنّا هو الله ربى ولا اشرك بربى احداً • ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن ترنِ انا اقل منك مالاً وولداً • فعسى ربى ان يؤتيَنِ خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً • او يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً • واحيط بثمره فاصبح يقلب كفيه على ما انفق عليها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم اشرك بربى احداً • ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً﴾.

يؤكد سبير انه عثر على اصل هذا المثل فى جزء من كتاب التلمود المتعلق بسفر اللاويين السفر الثالث من العهد القديم.

ولنثبت انه ليس هناك علاقة بين هذا النص القرانى والميدراش المذكور نقدم لكم النص الكامل لهذا الاخير كما جاء فى الترجمة الإنجليزية Midrash Rabbah Leviticus, tr par Judah J. Slotki. London, Soncino Press, 1951, pp 293 - 294. وملخصه باللغة العربية: الربىّ عزريا باسم ر. جودا ابن سيمسون قال يمكن مقارنة هذا بذلك الملك الذى امتلك بستاناً يتخلله صف من شجر التين وصف من العنب وصف من الرمان وصف من التفاح. فاجره لشخص ورحل. بعد زمن عاد الملك ليزور بستانه ويفرح بما طرحه من ثمار فوجده مكسواً بالاشواك..

احضر مقصلة ليزيل كل هذا. وإذ هو كذلك وجد وردة وردية اللون. شم رائحتها فهدىء مزاجه. وقال الملك «سينجو البستان بفضل هذه الوردة» مثلما سينجو العالم كله بفضل التوراة.

بعد ٢٦ جيلاً نظر القديس إلى عالمه ليرى ما طرحه من ثمار فلم يجد إلا ماءً فى ماء. جيل إينوش Enosh كان ماءً فى ماء وجيل الطوفان كان ماءً فى ماء وجيل الشتات كان ماءً فى ماء.

فالحضر متصلة لقطعها كما قيل «الربّ بالطوفان جلس ويجلس الرب ملكاً إلى الأبد» فرأى وردة وربية واحدة: إسرائيل أخذها وشم رائحتها فأعطى الوصايا للعشر وهدى مزاجه لما قالوا «كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له» الخروج ٢٤: ٧. فرد الرب قائلاً إن البستان سينجو. ومن أجل التوراة وإسرائيل سينجو العالم.

يبدو واضحاً من خلال هذا النص انه لا علاقة بينه وبين المثل القرانى سواء من حيث التعبير او حتى من حيث الحكمة التى يقترحها.

والقسم المشترك الوحيد بينهما هو كلمة الجنة. ومن الغباء أن يعتقد المرء أن محمد قد استوحى من نص يؤكد «ان خلاص العالم سيتحقق بفضل التوراة وإسرائيل». والنص القرانى يؤكد من ناحيته على فكرة ثقة المؤمن اللامحدودة فى القوة الإلهية ويدعو إلى التواضع والتسليم بإرادة الله. اما الميدراش اليهودى فيشيد بتعالى شعب إسرائيل مدعياً ان هذا الأخير سينقذ شعوب العالم!

اى تذبذب فى البصيرة دفع هاينريش سبيير إلى إيجاد تشابه والإعلان عن اكتشاف سرقة محمد للنص اليهودى!

كل مايمكن قوله هو أن سبيير يعانى هو الآخر مثل هرفيج هيرشفيلد من حالة نفسية مرضية. وبما أنه اتبع نفس المنهج فى مناقشته للمثل فى القران (ص ٤٢٦ ـ ٤٣٨)، فإننا لن نتوقف عند هذه المسألة. ويكفى ماسجلناه عليه من تفاهات.

ولم يكن فرانز بهل Franz Buhl اوفر حظاً عندما رجع إلى إنجيل لوقا محاولاً الربط بينه وبين المثل القرانى.

لنرى ماذا يقول إنجيل لوقا فى الإصحاح الثانى عشر الذى اشار إليه بهل؟

«وضرب له مثلاً قائلاً. إنسان غنى اخضبت كورته. ففكر فى نفسه قائلاً ماذا أعمل لان ليس لى موضوع اجمع فيه اثمارى. وقال اعمل هذا اهدم مخازنى وابنى اعظم وأجمع هناك جميع غلاتى وخيراتى. وأقول لنفسى يانفس لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة. استريحى وكلى واشربى وافرحى. فقال له ياغبى هذه الليلة تطلب نفسك منك. فهذه التى اعددتها لمن تكون. هكذا الذى يكنز لنفسه وليس هو غنياً لله».

لم ينكر هذا المثل من الإنجيل كلمة جنة على الإطلاق؛ اما مغزاه فيتضح فى الآية الأخيرة حيث تكمن الحكمة فى الابتعاد عن البخل وعن تكديس الأموال لصالح الإحسان وعمل الخير.

من الواضح أن النصين القرانى والإنجيلى مختلفان كل الاختلاف.

ويبقى السؤال المحيِّر: لماذا يصر هيرشفيلد وسبيير ويهل وأمثالهم على البحث عن اوجه التشابه بين القران والنصوص الاخرى؟ هل يتصورون انهم يخدعون احداً بمثل هذه الخزعبلات؟

ثانياً: ورغم هذا سنقدم بعض الأمثلة الإضافية على افتراءات هاينريش سبيير الذى يؤكد فى موضع اخر على الأصول الإنجيلية للآية (١٩) من سورة فاطر **﴿وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء والأموات﴾**. ونذهب إلى القول بأن هذه الآية مقتبسة من ٩ ايات من العهد القديم وخمسة من العهد الجديد. حيث لملم كلمة من كل اية من هذه الآيات المتباعدة. ثم قام بجمع كل الشتات الذى حصل عليه ليؤكد انه اكتشف مصدر الأيتين القرآنيتين.

ومثل ماقام به سبيير كمثل من يقوم بالرجوع إلى معجم لغوى للبحث والعثور على جمل صاغها اديب فى كتابه.

فماذا تقول الآيات الإنجيلية التى اشار إليها؟

- **سفر التكوين، الإصحاح ٨، الآية ٢٢:** «مدة كل ايام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء، ونهار وليل لاتزال».

- **سفر الخروج، الإصحاح ٤، الآية ١١:** «فقال له الرب من صنع الإنسان فما اومن يصنع اخرس او اصم او بصيراً او اعمى. اما هو انا الرب».

- **سفر المزامير، الإصحاح ١٢، الآية ٤:** «نور اشرف فى الظلمة للمستقيمين. هو حنَّان ورحيم وصديق».

ـ سفر المزامير، الإصحاح ١٥، الآية ١٧ ـ ١٨: «ليس الأموات يسبِّحون الربَّ ولا من ينحدر إلى الأرض السكوت (١٨) أما نحن فنبارك من الأرض وإلى الدهر».

ـ سفر يوئيل، الإصحاح الثانى، الآية ٣١: «تتحول الشمس إلى الظلمة والقمر إلى دم قبل أن يجيىء يوم الرب العظيم المخوف».

ـ سفر إشَعْياء، الإصحاح ٥، الآية ٢٠: «ويل للقائلين للشر خيراً وللخير شراً الجاعلين الظلام نوراً والنور ظلاماً».

جمع سبيير كلمات متناثرة من هذه المقاطع التسعة وهى: الظلمات، النور، الأموات، الأحياء. واعتقد أنه توصل إلى أصل الآية ١٩ من سورة فاطر، ياله من غباء ويالها من إهانة موجهة للعلم.

أما فيما يتعلق بسورة الزمر الآية ٢٩ ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمًا لرجل هل يستويان مثلاً. الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾. يقترح علينا سبيير العودة إلى المشنا ابوتْ (الآباء) (14, 13, 11 Abôt) للبحث عن أصل هذه الآيات. ويقول مقطع المشنا المشار إليه «انهبوا وابحثوا عن السبيل الصحيح الذى يتبعه الرجل...! بوشنا قال رفيق طيب فقال يومتى جار طيب. فقال لهم انهبوا وابحثوا عن السبيل السيىء الذى منه على الرجل أن يبتعد...! فقال يشوع رفيق سيىء. فقال يوسى جار سيىء».

لسنا ندرى كيف استطاع سبيير أن يجد أية مساحة مشتركة بين النصين القرآنى والإنجيلى؟

المراد من المثل القرآنى هو أن الرجل الذى يعبد عدة آلهة متصارعة لايمكن أن يقارن برجل يعبد إلهاً واحداً قوياً. «لا علاقة بين الرجلين» كما يشرح بلاشير ذلك فى ترجمته للقران. (باريس ١٩٥٧، ص ٤٩٢). Blachère trad du Coran, Paris 1957, p 492 note

المثل القرآنى يتناول إذن الفرق الشاسع بين مؤمن بإله واحد وبين المشرك.

اما المقطع المذكور من الميشنا فيتناول جانباً اخلاقياً وليس له علاقة بالشريعة. ويبدو أن سبيير لم يفهم المثل القرانى. هذا الحكم ينطبق على كل ماجاء به سبيير فى هذا الفصل (صفحات ٤٢٦ ـ ٤٣٨).

ثالثاً ـ خاتم النبيين:

لقد كانت هذه العبارة التى جاءت فى سورة الاحزاب، الآية ٤٠ ﴿ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ هى الأخرى محل مزايدات من طرف المستشرقين.

حيث نهب هيرشفيلد إلى القول بان عبارة (خاتم النبيين) مقتبسة من سفر حجى الإصحاح الثانى الآية ٢٣، الذى جاء فيه «فى ذلك اليوم يقول رب الجنود اخذك يازربّابل عبدى ابن سالتيئيل يقول الرب وأجعلك كخاتم لانى قد اخترتك يقول رب الجنود».

ويضيف هيرشفيلد ان كلمة خاتم وردت كذلك فى سفر الملوك الاول فى الإصحاح ٢١ الآية ٨ «ثم كتبت رسائل باسم أخاب وختمتها بخاتمه» اى بمعنى الختم. اما فى سفر التكوين الإصحاح ٣٨ الآية ٨ فجاءت بمعنى الختم المعلق بعناية فى الصدر، وذكرت كذلك فى سفر إرميا الإصحاح ٢٢ الآية ٢٤ بمعنى الختم الذى يحمل فى اليد من شدة الحرص عليه.

«حتى انا، يقول الرب ولو كان كنياهو بن يهو ياقيم ملك يهوذا خاتماً على يدى اليمنى فإنى من هناك أنزعك» وهو نفس المدلول الذى ورد فى سفر حجى. فالمقصود بكلمة خاتم هو ان الله قال لحجى انه اختار زربّابل كخاتم قيّم.

ويشرح هوروفيتز عبارة (خاتم النبيين) فى كتابه «دراسات قرانية» Koranisch Untersuchungen على انها الختم الذى يؤكد صحة وثيقة أو مخطوطة. وطبقاً لهذا التفسير فإن مهمة محمد قد انحصرت فى التاكيد، وكأنه موثق الشهر العقارى، على صحة وحقيقة الوحى الذى نزل على الأنبياء الذين سبقوه!

وفى هذه الحالة نتساءل: كيف كان لمحمد أن يؤكد على صحة نبوة رسل مختلفين وعلى صحة كتب مقدسة متعارضة واحياناً مزورة؟! لذا لايمكن الاعتداد بهذا الشرح.

والشرح الوحيد المقبول والمتعارف عليه في اللغة العربية هو ان كلمة (خاتم) تحمل معنى: الاخير ويقال خاتِم او خاتَم القوم اى اخرهم. وخاتم اى شيء هو حالته الأخيرة. (انظر لسان العرب في خاتم). والخاتم هو أحد القاب محمد، اى انه اخر الانبياء الذين ارسلوا للناس سواء في الماضى او المستقبل.

وهذا المعنى اوضح وارسخ ويظهر ذلك من خلال سورة ال عمران، الآية ١٩ ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، او الآية ٨٥ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

والمنطق يقول إن محمد يعتبر نفسه أخر الأنبياء طالما ان الإسلام كما يقول عز جلاله هو الدين الحق. كما تؤكد على هذا عدة أحاديث نبوية، حيث جاء على لسان النبى محمد: «أنا خاتم النبيين» (انظر البخارى، مناقب ١٨ . ومسلم، فضائل ٢٢١ . داود: فتان. والترمذى، فتان Fitan ٤٣ . والدرامى، مقدمة ٨. وابن حنبل، الجزء الثانى ٣٩٨ ـ ٤١٢، والجزء الثالث ٧٩، ٢٤٨، والجزء الرابع ٨١، ٨٤، ١٢٧، ١٢٨، والجزء الخامس ٢٧٨). واكثر الاحاديث شيوعاً حول هذا الموضوع هو ذلك الذى يقول فيه النبى محمد: «وأنا موضع تلك اللبنة».

فلم يكن لمحمد ادنى شك في انه اخر الانبياء وأنه لن يأتى بعده نبى. حيث أن بناء النبوة قد اكتمل به.

الفصل الثالث

معنى كلمة «فرقان»

انصب اهتمام عدد من المستعربين المتحرشين بالإسلام على كلمة «فرقان»، فبذلوا جهوداً مضنية بهدف إرجاعها إلى أصول يهودية - مسيحية.

ولقد ذكرت هذه الكلمة فى الآيات الست التالية:

١ - سورة البقرة، الآية ٥٣:

﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾.

٢ - سورة البقرة، الآية ١٨٥:

﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾.

٣ - سورة آل عمران، الآية ٣ - ٤:

﴿وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾.

٤ - سورة الأنفال، الآية ٤١:

﴿.. إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾.

٥ - سورة الأنبياء، الآية ٤٨:

﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين﴾.

٦ - سورة الفرقان، الآية ١:

﴿تبارك الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾.

ومن بين هؤلاء الذين تعرضوا لهذا اللفظ نذكر:

- ١. جيجر (ماذا اخذ محمد من اليهود؟ ١٩٠٢). A. Geiger, Was hat Moham- mead aus dem Judeutum au fgenommen, 1902, p 99 sqq.

- هـ. هيرشفيلد (بحوث جديدة في القرآن). H. Hirschfeld, New Researches into the Composition and exegesis of the Qoran, 1902, 68.

- ج. هوروفيتز (بحوث قرانية) ١٩٢٦، ص ٧٦ ـ ٧٧. J. Horovitz, Koranische un- tersuchungen, 1926, p 76 - 77.

وتجدر الإشارة إلى ان هؤلاء المستشرقين الثلاثة من الديانة اليهودية. وقد تصوروا كلهم ان كلمة «فرقان»، ماهي إلا كلمة عبرية، قد تم تعريبها؛ حيث كانت في الأصل «بيركى» "Pirké". ويشير مرجليوث D.S. Margouliou في موسوعة «الدين والاخلاق». (Encyclo-pedia Of Religion and Ethics) قائلاً إن الكلمة الاصلية هي بيركى ابوت Pirké Abot. ونحن نعلم أن كلمة Pirké Abot فصل الآباء "chapitre des Péres" تطلق على « ذلك النص في الميشنا أين دونت والأحكام الدينية والأخلاقية التي نص عليها حكماء ورجال دين المعبد اليهودي في زمن سيمون العادل "Siméon le Just" (حوالي ٣٣٠ ق.م) إلى غاية كتابة الميشنا (٢٢٠ م)».

- إبراهيم المالح - Abraham Elmaleh, Nouveau dictionnaire complet hébreu français, sv.

وكتاب المشنا المذكور يتكون من خمسة فصول، حيث يختلف الفصل الأخير من حيث شكله ومضمونه. كما ان الأحكام التي تضمنها (فيما عدا الفقرات الأربع الأخيرة) مجهولة الكاتب على عكس الفصول الأربعة الأخرى. «اغلب الظن أن هذا النص قد تم التمسك به في اليهودية ـ ويبدو ذلك جلياً ـ في كتاب الصلوات القديم، كجزء من خدمة قداس يوم السبت، خلال أشهر الصيف». (الموسوعة اليهودية، المجلد الأول، ص ٨١ ـ ٨٢، نيويورك ولندن ١٩٠١).

وطبقاً لهذه المعلومات نصل إلى نتيجة هى ان لفظ «فرقان» لايمكن ان ينطبق على هذا النص من المشنا.

اولاً: لان مؤلفى هذه الاحكام مذكورين صراحة، وبالتالى لم يكن موسى او هارون من بين واضعى هذا النص. فكيف الزعم إذن آن محمداً قد نسبه لموسى او هارون؟

ثانياً: يستنتج من محتوى هذا النص انه ليس نصاً مقدساً وبالتالى لم يذهب أحد إلى ذلك.

ثالثاً: ان هوروفيتز يعترف بنفسه أن كلمة بيركى Pirké تنطبق على الفصل الأول والرابع ولا تنطبق على الفصول الثلاث المتبقية. اما الذين يدعون ويزعمون أن كلمة «فرقان» تعنى Pirké Abot فما هم إلا ضحايا غباء لانظير له مرده إلى تهيؤات مرضية تجعلهم يتصورون انهم عثروا اينما ذهبوا على بصمات يهودية او عبرية!

وعلى جانب اخر نجد ان عدداً كبيراً من المستعربين المسيحيين قد حللوا مصدر كلمة «فرقان». من بينهم:

- نولدكه (إسهامات جديدة فى العلوم اللغوية السامية) ١٩١٠، ص ١٠ ومابعدها.

Noldeke (Neue Beitràge zur sem´tischen sprachwisseuchafr. 1910, p. 10 sq).

- ليدسبارسكى M. Lidsbarski (in ZS, 1922, 90 - 2)

- شفالى Fr. Schwaly (in ZDMG. 1898, p 134 sq, et Geschichte des Qorâns, p 34, n 1).

- فنسنك (دائرة المعارف الإسلامية) الطبعة الأولى. A.G. Wensinch (Ency. Islam, 1re éd. sv).

- بيل (اصول الإسلام فى بيئته المسيحية) ١٩٢٦. R. Bell (The Origin of Islam in its Christian enirronment, 1926, pp. 118 - 25).

وكذلك (مدخل إلى القرآن) ١٩٣٨، ص ٢٢٥ - ٢٢٩. (Introduction to the Qur'ân, Baroda 1938, pp 225 - 229).

يجمع كل هؤلاء فى تفسيرهم لكلمة «فرقان» على انها تعريب للكلمة السريانية فرقانا Furqânâ او للكلمة اليهودية ـ الآرامية فرقان Furqân، والمراد منها: الإنقاذ Salvation بالمعنى المسيحى للكلمة.

واعتماداً على هذا التفسير ترجم بلاشير Blachère كلمة فرقان بـ Slavation فى الترجمة التى وضعها للقرآن إلى اللغة الفرنسية.

أما رودى باريت Rudi Paret فقد استعمل فى ترجمته للقرآن (شتوتجارت ١٩٦٢) (Der Koran, Suttgart) كلمة Rettung كترجمة لكلمة فرقان كاتباً ومعلقاً (al furqân ist mehrdeutig) اى لفظ القرآن مبهم. وكان بمعنى كلمة فرقان التى وردت فى سورة الفرقان، الآية ١.

ويعطى ريتشارد بيل معلقاً على كلمة فرقان فى كتابه (مدخل إلى القرآن) ادنبرج ١٩٥٣، ص ١٣٦ ـ ١٣٨. R. Bell (Introduction to the Qur'ân, pp. 136 - 138, Edin- burg, 1953). الذى صدر بعد وفاته، تفسيراً يمزج فيه بين التفسيرالذى يجمع عليه المفسرون المسلمون وبين تفسير المستشرقين المسحيين الذين يزعمون ان لفظ «فرقان» يرجع إلى الكلمة السريانية فرقانا Furqânâ.

ونتيجة لهذا المزج جاء تحليله غامضاً حيث يقول: «إن الكلمة قد تم اشتقاقها من المصادر المسيحية، لكن محمد لابد وأنه قد مزجها باللفظ العربى (فرق) لتسهيل التفريق مابين اتباعه وبين غير المؤمنين. هذا المزج ايضاً، مرتبط بحالة موسى، مع الوضع فى الاعتبار التميز فى الوحى. فاليهود لديهم التوراة والمسيحيين لديهم الإنجيل، بينما المسلمين لديهم الآن القرآن ككتاب مقدس». ويفسر الاية ٤١ من السورة الثامنة كالآتى «إن انتصار غزوة بدر، لم يكن فقط بمثابة نجاة أو إنقاذ لتلك الفئة الصغيرة من المسلمين التى خرجت مع محمد، لاعتراض القافلة، فوجدت نفسها وجهاً لوجه مع جيش غير المؤمنين ولكنها كانت بمثابة التفريق النهائى، مابين اتباع محمد وغير المؤمنين من أهل مكة، إذ بعد سفك الدماء الذى حدث لم يعد هناك مكان سوى للعداء».

الغريب فى هذا التفسير هو الإدعاء بأن محمد قد استعار الكلمة السريانية بوركانا

Purkânâ وانه غير معناها حيث أعطاها معنى آخر استوحاه هذه المرة من الكلمة العربية فرق.

والسؤال الآن هو لماذا لم يلجأ مباشرة للمصدر العربى طالما انه يصبو إليه فى الأخير؟

ثم هل كانت كلمة Purqânâ السريانية منتشرة أو معروفة فى البيئة التى كان يعيش فيها محمد حتى يلجأ هذا الأخير لاستعارتها؟ هل هناك وثيقة تدل على تداول هذه الكلمة انذاك حول محمد؟

إن هذه الأسباب كافية لدحض أطروحة المستشرق بيل Bell ولإثبات خطأ مزاعم الذين تبنوا نفس الآراء. (م. وات: محمد فى المدينة، ورودى باريت: موسوعة الإسلام). (M. Watt: Muhammad at Medina, p 16 et Rudi Paret: Encycl. de L'Islam, 2em éd, sv).

تعليقنا

أولاً: انه من الغباء نسبة كلمة «فرقان» إلى الكلمة العبرية Pirkè التى تعنى فصول.
ثانياً، أن الآراء التى ترد كلمة «فرقان» إلى الكلمة السريانية بوركانا Purkânâ: الإنقاذ، تعد هى الأخرى ضرباً من الغباء.

يبقى أن نتبنى المعنى والاشتقاق التى اتفق عليه مفسروا القران وعلماء فقه اللغة العرب والمسلمون، وقد لخص كازيميرسكى بعد إطلاعه على المعاجم العربية آرائهم كالآتى:

● فرقان:

١ ـ مصدر الفعل: فرق.

٢ ـ كل مايدل على التفريق، الفرق بين الخير والشر، بين المشروع واللامشروع. ويوم الفرقان هو يوم التمييز، إنه معركة بدر، أول انتصار لمحمد على الكفار.

٣ ـ اى كتاب مقدس (لأهل الكتاب) مثل الإنجيل وخاصة القرآن.

واستناداً على هذا نقترح التفسير الآتى:

ان **فرقان** مصدر الفعل فرق معناه: التمييز؛ بمعنى التمييز بين الخير والشر، بين المشروع واللامشروع. وبالقياس نجد ان كلمة **فرقان** تدل على معيار التمييز بين الخير والشر إلخ... وأخيراً الكتاب المقدس الذى يعرض هذا المعيار ويعبر عنه.

لنطبق إذن هذا التفسير على الآيات القرانية الست، سنجد الآتى:

أولاً: فى الآيات: ٥٣ من سورة البقرة و٤٨ من سورة الأنبياء، تدل كلمة **فرقان** على التمييز بين الخير والشر، بين الحلال والحرام.

ثانياً: ان المراد من كلمة **فرقان** فى الآيتين ٤ من سورة آل عمران والآية ١ من سورة **الفرقان** هو القران.

ثالثاً: والمقصود منها فى الآيتين ١٨٥ من سورة البقرة و٤١ من سورة الأنفال التمييز بين الخير والشر وبين الحق والباطل فى الدين.

بالتالى نرفض ان يعطى لهذه الكلمة تفسيراً من نوع الإنقاذ Salvation أو مايعادلها باللغات الأخرى (مثل Rettung بالألمانية.. إلخ....).

الفصل الرابع

مزاعم مرجليوث الغريبة

ينحدر ديفيد صموئيل مرجليوث Daved Samuel Margouliouth (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠) الذى تشير أسمائه الثلاثة على أصوله اليهودية الخالصة من أسرة يهودية.

وينطق اسمه بالعبرية الدارجة مرجليوث، الذى يكتب بطرق عديدة: مرجالت، مرجليوث (Margulies, Margolies, Margolioth, Margolit, Mirgolit)؛ أى تكلم. ومن اقدم اعضاء عائلته المعروفين نذكر يعقوب فون رينسبورج Jacob Van Regensburg (المتوفى مابين ١٤٩٩ و١٥٢٢) الذى كان حاخام رينسبورج، حالياً راتيسبون Ratisbone فى المانيا. وعين ابنه صموئيل زعيماً للمجمع اليهودى فى بولونيا من قبل سيجسمنود الأول Sigsmund I.

اما ديفيد صموئيل مارجليوث فقد ولد عام ١٨٥٨، وكان الابن البكر لحزقيال مرجليوث الذى اعتنق المسيحية وصار مبشراً مسيحياً.

اعتنق ديفيد هو الآخر المسيحية مثل والده وعمد قساً عام ١٨٩٩. لكنه ظل فى اعماق قلبه ونفسه يهودياً، ولهذا كرس نفسه للدراسات اليهودية. من بين هذه الدراسات:

١ ـ شرح كتاب دانيال، لمؤلفه يافث بن على، نشره وترجمه مرجليوث ١٨٩٩.

A. Commentary on the Book of Daniel by Jephet Ibn Ali... edited and translated by D.S. Margouliouth, 1899.

٢ ـ مكانة الإكليرلية فى الأدب السامى، عام ١٨٩٠. The Place of Ecclesiastisus in Semitic literature, 1890.

٣ ـ اصل «الاصل العبرى» للإكليروس، عام ١٨٩٩. The Origin of the "Hebrew Original" of Ecclesiasticus, 1899.

٤ ـ العلاقات بين العرب والإسرائيليين قبل ظهور الإسلام، ١٩٢٤. Relation between Arabs and Israelites frior to the rise of Islam, Schweich lectures, 1921, published 1924.

لقد جند صمونيل مارجليوث نفسه طول حياته عدواً عنيداً ضد الإسلام. ودفعه تعصبه العنيف إلى عرض المزاعم شديدة الغرابة لم يكن القصد منها سوى الهجوم على الرسول محمد والحط من رسالته.

وسوف نكشف هنا بعض هذه المزاعم التى رفض قبولها مستشرقون آخرون.

اولاً: اشتقاق كلمة «مسلم»:

بادر مرجليوث بالإدعاء ان كلمة «مسلم» كانت تطلق سابقاً على مريدى مسيلمة الذى ادعى النبوة. المعروف باسم مسيلمة الكذاب. وما أن نشر مرجليوث هذا الرأى الخيالى فى جريدة المجتمع الآسيوى الملكى، لندن، ص ٧٦٤ ومابعدها. Journal of the Royal Asiatic Society (JRAS) Lodon, pp 467, sqq. وعلى الفور رد عليه المستعرب الإنجليزى المشهور شارلز ج. ليل Charles J. Lyall، رداً لاذعاً على صفحات نفس المجلة عام ١٩٠٣، ص ٧٧١. وسدد له ضربة لم يفق منها، لدرجة أن مرجليوث لم يرجع أبداً للإدلاء بذلك الرأى فى اعماله اللاحقة.

واتساءل كيف وقع مرجليوث وهو فى سن الخمس والأربعين فى هذا الخطأ الفاضح؟ الم يسبق له أن قرأ القرآن او السيرة أو اى كتاب عن تاريخ الإسلام؟ وكيف يشتق اسم الفاعل «مسلم» من اسم مسيلمة؟ فلو كانت لديه أدنى المعرفة باللغة العربية لتنبه إلى أن النسبة إلى مسيلمة تكون مسيلمى لا مسلم. لكن للأسف فإن تعصبه أدى إلى عماء بصيرته.

ثانياً: «فرقان» و«بيركى ابوت Pirkè Abbot»:

إننا تعرضنا للرأى الخاطىء الذى يجمع بين المصطلحين والذى تبناه مرجليوث كما تبناه من قبله هرفيج هيرشفيلد فى كتابه (بحوث جديدة فى فهم وتفسير القرآن، لندن ١٩٠٢). New Researches into the composition and Exegesis of the Qorân, London, 1902

حيث أكد أن كلمة «فرقان» ماهي إلا تعريب للكلمة بيركى Pirkè، التى تطلق على مختارات من الأحكام وصفها حاخامات يهود.

ثالثاً: حول إبراهيم:

وفى مقالته عن محمد فى موسوعة الدين والأخلاق، أدنبرج ١٩١٥، المجلد الثامن، ص ٨٧١ ـ ٨٨٠. Encyclopaedia of Religion and Ethics, vol. 8. pp 871 - 880, Edinburgh 1915

قدم مارجوليوث مجموعة من المزاعم المغلوطة دون أن يهتم بالتوثيق التاريخى. حيث يقول فيما يتعلق بإبراهيم: «أن من المحتمل أن يكون اسم إبراهيم كان غير متداول وغير معروف فى مكة إلى أن أدخله محمد». فولج بإدعائه هذا فى مسألة لاتحتمل الجدال. حيث أن أهل الكتاب، أى اليهود والمسيحيين، كانوا متفقين على العلاقة بين إبراهيم وقبائل شمال الجزيرة العربية.

وبما أن اليهود والمسيحيين كانوا يعيشون فى مكة قبل الإسلام، وهذا باعتراف مرجليوث نفسه، فكيف إذن لم يعرف هؤلاء بوجود اسم إبراهيم الذى كان متداولاً فى مكة قبل ظهور محمد؟ ولماذا ينتظرون مجيء محمد للتعريف بإبراهيم؟ أظن أن سخافة رأى مرجليوث واضحة للعيان.

ويدعى مرجليوث من جهة أخرى أن ملة إبراهيم قد ظهرت فى حران Harrân لدى أهل سبأ. لذلك يواصل قائلاً: «يبدو أن الحرانيين قد سموا الأحناف أى المشركين، ومن طرف جيرانهم المسيحيين. ومن الممكن أن تكون هذه التسمية هى أصل كلمة حنيف التى وردت فى القرآن على أتباع ملة إبراهيم وهى مرادفة لكلمة مسلم».

نحن أمام زعمين لا أساس لهما وهما أنه عبادة إبراهيم كانت موجودة فى حران، وأن المسيحيين أطلقوا على الحرانيين اسم الحنفيين.

ولقد عرض مرجليوث لهذين الزعمين دون الاستناد إلى أى مصدر يذكر. وليس هناك أى مصدر قد وافق على أى من الزعمين اللذين اختلقهما خيال مرجليوث المختل.

رابعاً: صلاة المسلمين اثناء الحرب وتاريخ إقرار الفاتحة:

يدعى مرجليوث أن «طقوس الصلاة (الإسلامية) مرتبطة بطقوس الحرب. وإن لم يكن المسلمون بحاجة إليها لولا ان اقامها المقاتلون وقت الحرب» (ERE, Ibidem, p 875b). إن هذا الإدعاء فى الحقيقة مثير للضحك!

ويزيد مرجليوث الطين بلة حين يستنتج أن الفاتحة التى تتلى اثناء الصلوات سابقة للهجرة حيث أن محمد لم يكوّن جيشاً إلا وهو فى المدينة.

هذا الإدعاء صبيانى وسخيف؛ صبيانى لأنه يؤكد أن الصلاة فرضت على المسلمين كعمل عسكرى. وهذا ما لا يقبله العقل. وسخيف لأن القول بأن الفاتحة سورة مدنية مؤداه أن محمد واتباعه لم يكونوا يؤدون الصلاة قبل ذلك. مع أن الكتب والأحاديث الصحاح تؤكد على أن الصلاة غير جائزة دون فاتحة. (انظر البخارى، باب الآذان al athân، رقم ٩٣. والترمذى: باب الصلاة، رقم ٦٣. والنسائى: افتتاح، رقم ٢٤. وابن ماجه: كتاب الصلاح، باب افتتاح القراءة).

وعلى هذا الأساس يؤكد كل المحققين المسلمين على أن الفاتحة من اقدم السور القرانية، وهى أم الكتاب (الدياربكرى: الخامس. والسيوطى: الإتقان، ص ٥٤.. إلخ).

لكن مرجليوث يستنتج أن الفاتحة لم تنزل إلا فى وقت متأخر. ويعتمد فى ذلك على تفسير خاطىء للآية الأخيرة من هذه السورة مفاده أن المغضوب عليهم هم: اليهود، أما الضالين فهم المسيحيين. «وبما أن معارك محمد مع اليهود لم تبدأ إلا بعد الهجرة ومعاركه مع المسيحيين بعد ذلك بسنوات فإن الفاتحة تعود إلى مابعد الهجرة» (المرجع نفسه، ص ٨٧٥).

وكما يلاحظ بلاشير Blachèr (القران Le Coran, tr. fr. p 29 m. 7)، فإن «هذا التفسير خاطىء نظراً للنفى الذى ورد قبل اللفظ الثانى. إن الفكرة تنطبق فى حقيقة الأمر على الكفار بصفة عامة».

ويؤكد رودى باريت Rudi Paret من جهته أن يصعب تبرير هذا التفسير الذى يعتمد على أن المغضوب عليهم هم اليهود وأن الضالين هم المسيحيين.

أما س. د. جواتين S.D. Goitein فيذكر أن الفاتحة قد استعملت فى الصلاة قبل الهجرة بكثير. «الصلاة فى الإسلام» دراسات فى التاريخ، ليدن ١٩٦٦، ص ٨٢ ـ ٨٤.
(Prayer in Islam, Studies in Islamics History and Institutions, Leiden, 1966, pp. 82 - 84).

ونشير هنا إيضاً إلى مايذهب إليه المستشرق جولدتسيهر Goldziher من ان الفاتحة هى المقابل للصلوات الربانية Pater Noster.

وبالطبع فإن هذا التفسير خاطىء حيث لاتوجد أى علاقة بين الاثنين. بل واقول إنهما متعارضين:

١ ـ الفاتحة تؤكد على وحدة الله، بينما تؤكد الصلوات الربانية على أبوية الله.

٢ ـ تؤكد الفاتحة على سيادة الله على الكون وعلى يوم القيامة، بينما تكتفى الصلوات الربانية بتمجيد اسم الله والتوسل لمجىء ملكه.

٣ ـ تعبر الفاتحة عن استسلام الإنسان واحتياجه لمساعدة الله. اما الصلوات الربانية فتطلب من الله أن يمنح الإنسان قوته وأن يغفر له ذنوبه وأن يجنبه من الوقوع فى الغواية.

ياله من تكبر، يالها من عجرفة! كيف يُخَاطَب الله مخاطبة الند للند! وكيف يؤمر هكذا بإبعاد عباده من الغواية! هل هذه صلاة أم أمر؟!

من البديهى إذن أن مكنون الفاتحة متعارض كل التعارض مع فحوى الصلوات الربانية المسيحية. كيف يجرؤ إذن جولد تسيهر (وغيره ممن ساروا على خطاه دون أدنى تفكير مثلما هو حال بلاشير على التاكيد بأن الفاتحة هى مايمكن تسميته بالصلوات الربانية الإسلامية؟!

اما مرجليوث فيومىء بمكر قائلاً: «الصلاة التى تتطابق مع الصلوات الربانية واسمها الفاتحة» (المرجع السابق، ص ٨٧٥ ب).

خامساً: الصيام وتحريم الخمور:

هاجس الانضباط العسكرى جعل مرجليوث يفسر كل مؤسسات ومحرمات الإسلام من خلاله.

فهو يرى أن صيام شهر رمضان «تدريب عسكرى، فمن ناحية المعروف أن رجال الحرب يتحملون الحرمان وانهم دربوا على وصل الليل بالنهار من ناحية أخرى».

فإن كان الامر كذلك وإن كان هذا هو السبب وراء فرض الصيام نتساءل لماذا فرض الصيام على غير المحاربين مثل النساء وصغار السن؟

ويعود مرجليوث ليؤكد الفكرة فى تفسير تحريم الخمور (فى سورة البقرة: الآية ٢١٩، وسورة المائدة: الآية ٩٠): «يبدو أن هذا التحريم مرتبط بالانضباط العسكرى. وهناك ربما شىء من الحقيقة فى فكرة بالجراف O.W. Palgrave (Central and Eastern Arabia, London. 1865, 1. p 248) من ان هذا التحريم قد شرع بالتحديد ضد المسيحية» (نفس المرجع السابق).

لكن هذين الرايين خاطئين. إذ لايلخذان فى الاعتبار التطور التدريجى لتحريم الخمر وظروف هذا التحريم المنصوص عليهم فى تفاسير القران وفى بعض كتب الفقه، حيث لم يدخل فى الحسبان مسألة الانضباط العسكرى ولا معارضة المسيحية.

سادساً: التحريم الخاص بالأكل:

ويؤكد مرجليوث فى هذا المجال ان محمد «بدلاً من ان يضع نظاماً للمأكولات المحرمة، وهو النظام الذى يشغل حيزاً كبيراً فى قانون موسى. لجا إلى استبقاء الحد الأدنى مما اقره مجمع القدس والمنصوص عليه فى الأصحاح ١٥ مع تحريم لحم الخنزير وهى فكرة استحدثها على تلك التشريعات». (نفس المرجع، ص ٦ ـ ٨٧٥).

مما لاشك فيه أن هذا الإدعاء خاطىء. حيث يقول نص أعمال الرسل من العهد الجديد، الأصحاح ١٥ الآية ٢٠ حول قرار مجمع القدس الذى حضره بولس وبرنابا من

جهة والرسل المتواجدين في القدس من جهة أخرى «أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنا والمخنوق والدم».

حتى لو التزمنا بالمعنى الحرفي لهذا النص (لأن هناك من يفسر كلمة: الدم على أنها القتل). (انظر العهد الجديد، ترجمة Olcuménique، باريس ١٩٧٣، ص ٤٠٣).

(Nouveau Testament, tr Olcuménique, Paris 1973, p 403, n.v.).

فإننا نجد أن التحريم اقتصر على المخنوق ودم الحيوانات. أما أن يكون النص الأصلي لأعمال الرسل قد نص على لحم الخنزير، فهذا إدعاء اختلقه مرجليوث لخدمة قضيته والقضية اليهودية عموماً.

وحتى هذا الاختلاق لم يسعفه في إدعاءاته الوهمية، لأن التحريم في القران جاء على النحو التالي: **﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النُصب﴾** سورة المائدة، الآية ٣.

من الواضح أن قائمة اللحوم المحرمة في القران أطول بكثير مما حرم من طرف مجمع القدس في أعمال الرسل: الأصحاح ١٥ الآية ٢٠.

كما أن اللحوم المحرمة في القران مختلفة عما حرمه موسى من لحم الإبل والأرنب الوحشية والأسماك الخالية من الحراشيف. وهي كلها لحوم حللها القران.

ونكتفي بهذا القدر مما أطلقه مرجليوث من مزاعم وإدعاءات تفتقر لأدنى موضوعية، ولن نتعرض لأرائه الأخرى التي عرضها في مقاله في «موسوعة الدين والأخلاق»، المجلد الثامن، ص ٨٧١ ـ ٨٨٠، ادنبرج ١٩١٥. (Encyclopedia of Religion and Ethics. Vol. 8, pp 871 - 880, Edinburgh 1915). لأنها خارج نطاق بحثنا. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الآراء أيضاً غارقة في التعصب.

الفصل الخامس

أجناس جولدتسيهر وتشابهاته الخاطئة بين الإسلام واليهودية

لقد كتب إجناس جولدتسيهر Ignaz Goldziher (١٨٥٠ ـ ١٩٢١) مقالاً عن الإسلام في «الموسوعة اليهودية» ص ٦٥١ ـ ٦٥٩، نيويورك ولندن ١٩٠٤. The Jewish Encyclopedia. (TV 1, pp 651 - 659, New York and London, 1904). حيث بحث فيها على وجه الخصوص عن الأصول اليهودية لمختلف التصورات والتشريعات الإسلامية.

وسنتعرض بالتفصيل لهذه الآراء.

١ ـ إله إسرائيل وإله الإسلام:

حيث يؤكد أن مفهوم التوحيد الذى عارض به محمد وثنية عرب الجاهلية يتوافق فى جوهره مع ذلك التوحيد الوارد فى العهد القديم (المرجع السابق ٦٢٥ ب).

أولاً: نقول إن هذا الرأى خاطىء لأن إله العهد القديم خصص على أنه إله بنى إسرائيل دون غيرها. فإسرائيل هى التى اختارها الله (الخروج ١٩، ٦٤ ـ التثنية ٤، ٢٠ ـ ٣٢، ٩، ٧٠ ـ ٤١، ٨، ٩ ـ ٤٣، ٢١.. إلخ).

وعلى النقيض من ذلك، فإن الله فى الإسلام هو رب العالمين، (سورة الفاتحة، الآية ٢) دون أن يميز أحد من عباده عن الآخر ولم يخص شعباً معيناً بسيادته له.

ثانيا: إله إسرائيل هو الأب (أشعياء ٦٣، ١٦ ـ ٦٤، ٧). أما فى الإسلام فإن الله ﴿لم يلد ولم يولد﴾ (سورة الإخلاص، الآية ٣).

ولهذا كان باينتش Baentsch محقاً عندما قال إن التوحيد اليهودى توحيد قومى، أما التوحيد الإسلامى فهو عالمى. (Altorientalischer und israelistischer Monotheismus, p 77 - 94).

٢ ـ الصيام اليهودى والصيام الإسلامى:

يدعى جولدتسيهر ومن بعده فنسنك Wensinch (دائرة المعارف الإسلامية) .Encycl) de l'Islam, s.v) ان محمد اخذ الصوم عن اليهود. هذا الراى بالطبع جانبه الصواب لما يلى:

اولاً: لان الصوم عند اليهود خضع لبعض الظروف الخاصة بتاريخ اليهود وانحصر فى يوم واحد. ويوم الصوم الوحيد الذى أمر به النبى موسى، وهو يوم الغفران (اللاويين ١٦٦ ـ ٢٩). وبعد السبى البابلى اقرت أيام أخرى للصيام من قبل احبارهم تذكيراً بالمآسى التى لحقت بالشعب اليهودى (زكريا ٨ ـ ٩): صيام الشهر الرابع (تموز) والشهر الخامس (اب) والشهر السابع (تشرين) والشهر العاشر (تبيب). ويبدا الصوم من الفجر لغاية ظهور اول نجوم الليل فيما عدا صوم الغفران والتاسع من اب، الذى يمتد من «الليل إلى الليل». ويقتصر الصيام على الامتناع عن الاكل والشرب فقط.

نلاحظ إذن أن الصيام اليهودى لا علاقة له بالصيام الإسلامى:

اولاً، الصيام فى الإسلام يستمر شهراً كاملاً (شهر رمضان) وليس يوماً او نهاراً واحداً مثلما هو الحال بالنسبة للصيام لدى اليهود.

ثانيا، الصيام فى الإسلام ليس مرتبطاً بحدث تاريخى ولا باى مأساة حلت بالمسلمين، لكنه ركن أساسى من الأركان الخمسة فى الإسلام.

اما الصيام لدى اليهود فهو اختيارى ولا يصبح ملزماً وفرضاً إلا عندما تكون الأمة اليهودية تحت اضطهاد ما. وينتفى عندما يحل السلام فيها. (الموسوعة اليهودية، ص ٧٣٤) (RH. 18b - The Jewish Encyclopeadia, tv, p 347b)

لقد عرف الصيام، كأداء دينى، فى عدة ديانات سبقت اليهودية، حيث اتخذ اشكالاً عديدة وسن لأهداف مختلفة. وكان بمثابة عمل تطهيرى، مؤداه التوبة والاغتسال من الذنوب. كما كان يراد منه إضفاء المزيد من القوة على الطقوس الدينية وفى الاخير كان احياناً يدخل فى مراسيم الحداد.

ناهيك عن كونه فى المجتمعات البدائية فى مصر كان وسيلة للتطهر من الذنوب. أما فى بابل فقد كان الصيام يدخل فى طقوس التوبة. وهذا ماتدل عليه تراتيل التوبة التى كان يرددها البابليون حيث يصف الصائم كيف انه لم ياكل ولم يشرب الماء. كما خصصت ايام فى فترات اليأس والكوارث حيث يكون الصوم اكثر شدة. Zimmern: Balrilonische Busspsalmen, Leipzig, 1885, p. 34' Masper, Sawn of Babylonia, Boston 1898, p 320, 688. فكيف يدعى جولدتسيهر ان محمد اخذ فكرة الصيام من اليهودية، كأن اليهودية هى الديانة التى ابتدعته وتناسى أن الصيام مورس منذ الاف السنين قبل ظهور اليهودية؟ لكنه نفس التحيز ونفس الهاجس الذى جعله ويجعل امثاله يرون بصمات يهودية فى كل شىء. حتى أن عدم نزاهته وانحيازه الدائم لبنى جلدته من اليهود والوساوس التى ترويده مثل نظرائه اليهود فى كل مكان جعلته وعلى مدى تناوله للصيام - وهو مايؤكد عدم أمانته وعدم صدقه - يضع بعد كلمة «صيام» العربية كلمة «صوم» العبرية بين قوسين ليلمح أن الكلمة العربية مجرد نسخ للكلمة العبرية. ولو كان اكثر ذكاءً لاستعمل فى مرجحته الكلمة العربية صوم بدلاً من صيام لأنها تقترب اكثر من الكلمة العبرية!

٣ - القِبْلَـــة:

يدعى جولدتسيهر ان محمداً قد قرر فى بادىء الأمر أن تكون قبلة الصلاة بيت المقدس تقرباً من يهود المدينة الذى كان معتمداً على قوتهم للاعتراف به كآخر رسول لله نصت عليه الكتب المقدسة (المرجع السابق، ص ٦٥٢ ب). وعندما لم يستطع استمالتهم قام بتغيير القبلة وجعلها الكعبة فى مكة.

يفتقد هذا الراى للمصداقية لانه لايقوم على اسس صحيحة، لكنه منتشر بين المستشرقين. وقال به كل من فيل Weil p. 90, وموير Muir 111, pp. 42 wqq, وجريم «محمد» H.Grimme: Mohammad 1, p 71، وليون كيتانى Leone Caetani 1, p 455 sqq، وبهل Fr. Buhl p. 212. وقد افتقد هؤلاء الأساس القوى فى دعاواهم.

ويمكننا أن ندرج الملاحظات التالية بشأن هذا الموضوع:

أولاً: نحن لانعلم علم اليقين اتجاه القبلة قبل الهجرة. وهناك بهذا الشأن ثلاث آراء:

١ ـ أن القبلة كانت الكعبة (الطبرى فى تفسيره: ١١، ٤ ـ وكذلك البيضاوى: ١١، ١٣٨).

٢ ـ أن القبلة كانت طول الوقت فى القدس (الطبرى: تفسير ١١، ٣، ٨ ـ تاريخ: ١، ص ١٢٢٨٠ ـ البلاذرى: فتوح البلدان، الطبعة الثانية).

٣ ـ أن محمد قبل الهجرة كان يقف للصلاة فى مكة بحيث تكون إلى اليمين من الكعبة والقدس خط طولى فى اتجاه بيت المقدس (ابن هشام: السيرة، ص ١٩٠ ـ ٢٢٨).

لقد اعتمد سبرنجر (Sas leben und Sie Lehre des Mohamad 111, 46, n.2) وفنسنك (Mohammad eu de Joden te Medina. Dissertation, Leiden. 1908, p 108) الرأى الثانى الذى يقول إن قبلة الصلاة قبل الهجرة كانت تجاه بيت المقدس وافترضوا كذباً أن محمداً اتخذ بيت المقدس قبلة لارضاء اليهود. إن كان الأمر كذلك فمن الخطأ الاعتقاد إذن أن محمد قد قرر أن تكون القدس هى القبلة لاستجلاب رضا اليهود لأنه فى مكة وقبل الهجرة لم يشعر بضرورة ذلك حيث لم يحتك باليهود فعلاً إلا وهو فى المدينة.

وفى رأينا أن صلاحية الرأى الثانى تدعمها عدة اعتبارات منها:

أولاً: أن عندما قرر محمد تغيير وجهة القبلة من القدس إلى الكعبة فى رجب من العام الثانى للهجرة (ابن هشام، طبعة فستنفيلد Wistenfeld، ص ٣٨١ ـ ابن سعد Man Gotb، ص ٢٦١ ـ الطبرى، تفسير ١١، ص ٣) أو فى شعبان من نفس السنة (الطبرى: تفسير، ١١، ٣ ـ ابن الأثير، ١١، ٩٨) لم يرد فى الآيات القرانية المتعلقة بهذا الحدث أى إشارة إلى فكرة العودة للقبلة القديمة (سورة البقرة، الآية ١٤٢ ومابعدها): **﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** (١٤٢). **﴿...وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه...﴾** (١٤٣). **﴿قد نرى تقلب وجهك فى**

السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾ (١٤٤).

ثانياً: ومن جهة كانت الكعبة فى مكة قبل الهجرة ماتزال مرتعاً للوثنية العربية. فلم يكن من الممكن جعلها قبلة الإسلام الناشىء والتى كان يصبو إلى هدم ماتمثله لدى العرب من رمز للوثنية.

ثالثاً: يضاف إلى هذا أن الإسلام هو دين إبراهيم مؤسس الكعبة. فكان من الطبيعى ان يلتفت إليها المسلمون فى صلواتهم.

هذه البراهين كافية لدحض الزعم القائل بأن هناك علاقة مابين اختيار القدس كقبلة أولاً وبين موقف محمد من اليهود أو من الجاليات المسيحية فى الجزيرة العربية (كما يفترض ذلك فريدريش شفالى. Friedrich Schwally, (in Geschichte de Qorans, p. 175 - 6, mk).

لكن القول بأن القبلة قبل الهجرة كانت القدس شىء والقول أن النبى محمد قد استعار هذا الطقس من اليهود شىء اخر. صحيح أن اليهود يتجهون فى صلواتهم صوب القدس (سفر الملوك الأول، ٨، ٤٤، ٤٨ ـ سفر دانيال ٦ و ٢).

وأن إسرائيل تتجه أثناء الصلاة إلى نفس الوجهة (Yes Bar 17,5). ويكمن السبب الذى جعل محمد يتجه فى الفترة المكية ناحية القدس فى أن الكعبة لم تتطهر بعد من الوثنية بحيث كانت أنسب قبلة هى المسجد الأقصى. وتتحدث الآية الأولى من سورة الإسراء عن هذا المسجد الأقصى. صحيح ان ليس هناك إجمال حول تحديد هذا المسجد. لكن الفقه الإسلامى يقرنه عموماً بالقدس ويجمع على أن هذه الآية مكيّة وأن الإسراء قد تم من مكة إلى القدس.

والسؤال المطروح، هو عن أى قدس نتحدث؟

أعن القدس السماوية أم القدس الواقعية (تلك التى تقع فى فلسطين)؟ إنه سؤال غبى

اثاره بلاشير فى ترجمته للقران Blachère, tr du Coran, p. 306 n لأن هذه القدس السماوية مجرد خيال نسج فى النصوص الأخروية apocalyptiques اليهودية المتاخرة (Aeth Hen 90, 29) التى تتحدث عن قدس سماوية شيّدها الله فى السماء لتكون المأوى الأخير للمستقيمين. شيء يشبه الجنة، (Syr. Apocalypse Par 4, 2 sqq, Esdra 8, 52)، حيث تكمن شجرة الحياة.

ونّجد أن هذه القدس السماوية تحمل فى العهد الجديد معانى الأمل فى السلام حيث جاء ذكرها على هذا النحو فى رؤيا يوحنّا اللاهوتى (٢١، ٤٠) «وذهب بى الروح إلى جبل عظيم عال وأرانى المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله».

ويزعم بلاشير (نفس المرجع) زعماً غريباً فحواه أن «المسجد الأقصى هو القدس السماوية، ويضيف لكن مما لاشك فيه أنه بعد ذلك وربما فى خلافة الأمويين فى دمشق أصبحت عبارة المسجد الأقصى تشير إلى مدينة يهوذا وليس إلى القدس السماوية. والسبب فى هذا التغيير و أن بحث الأمويين عن طريقة لانتزاع مكة من مكانتها كعاصمة دينية للعالم الإسلامى كله»!!

٤ ـ الشريعة الإسلامية والهلاخا (الشريعة) اليهودية:

يتحدث جولدتسيهر ايضاً فى نفس المقال «الموسوعة اليهودية» -Jewish Encyclo) (peadia t.v 1, p. 665 to - 665 عن تاثير مزعوم للشريعة اليهودية على الشريعة الإسلامية. لكنه لايذكر بهذا الخصوص سوى طريقة ذبح الحيوانات ومراسيم غسل الأموات قبل الدفن!

لكنه تناسى ان غسل الأموات كان من الطقوس المنتشرة منذ الأزمنة الغابرة حتى لدى الشعوب البدائية (موسوعة الدين والأخلاق، طبعة ٤، ص ٤١٧، ادنبرج ١٩١١). (Encyclopedia of Religion and Ethics, t 4, p 417, Edinburgh 1911: Toilet of the Corpse). مما يثبت ان اليهود ليسوا من ابتكر هذا الطقس.

أما ذبائح الحيوانات لغرض التغذية فهو عملية جد معقدة لدى اليهود وفى غاية البساطة لدى المسلمين. يجب أن يقوم بعملية الذبح لدى اليهود الشوحت، اى رجل مؤهل للقيام بالذبح وعلى دراية بالطقوس. وطبقاً للقواعد التلمودية لايحق للنساء ممارسة هذه المهنة. (انظر Yoreh De'ah 1, 1). والشوحت الذى يجب ان تتوافر فيه شروط «لايجب ان يكون مدمناً للخمور (Shulhan 'aruk Yoreh De'ah 1, 8). كما يجب الا يكون قد اتهم من قبل بإهمال واجباته (المرجع السابق ١، ١٤)، كما يجب ان الا يكون فاجراً مخترقاً للقانون (المرجع السابق ١، ٥)، ويجب الا يكون قد سبق له ان انتهك صراحة قدسية يوم السبت المقدس (المرجع السابق، ١ ـ ٥). (الموسوعة اليهودية، ص ٣١١، نيويورك ولندن).
(The Jewish Encyclopeadia, t. XI, p 311, New York and London).

لا وجود لكل هذا فى الإسلام، حيث لايطلب ان يكون من يقوم بالذبح مؤهلاً دينياً، ولا يحمل اى لقب. كل ماهو مطلوب هو ذكر عبارة «بسم الله» قبل الذبح حتى لا تؤهل لغير الله. ونزع الحلقوم والمرىء. وهذه العادة ليست خاصة باليهود وحدهم.

يظهر إذن من هذين المثالين المعروضين كحالات لتاثير الشريعة اليهودية على الشريعة الإسلامية أنه لايوجد مجال لتأثير الواحدة على الأخرى. وليس من المجدى وضع المصطلحات الخاصة بالذبح المستعملة فى اللغة العربية إلى جنب المصطلحات فى اللغة العبرية أو العكس، لأن معنى المصطلح العربى مختلف تماماً عن معناه فى اللغة العبرية. لكن جولدتسيهر لجا رغم ذلك إلى ذلك باستمرار مع انه أسلوب غير نزيه فى البحث.

ونجده يلجا إلى نفس الأسلوب عندما يدعى «ان عائشة زوجة النبى (ﷺ) اقرت بأنها تلقت فكرة عذاب القبر من امراة يهودية وان محمد (ﷺ) قد ضمها إلى تعاليمه»

من اين جاء بهذه القصة؟ لم يذكر شيئاً بهذا الشأن. بالتالى فإن هذا الراى لايستحق بان يؤخذ بعين الاعتبار. إضافة إلى انه لم ترد اية إشارة لعذاب القبر فى القرآن. (انظر: فنسنك: العقيدة الإسلامية، ص ١١٧ ـ ١١٩) (Wensinck: Muslim Creed, p 117-199.)

ومع هذا يجب ان يعترف لجولدتسيهر اعتداله مقارنة بمستشرقين آخرين مثل الفريد

فون كريمر Alfred Von Kremer: (Culturgeschichte des Orient unter deu chali-fen, 1, 525 - 55). الذى تمادى فى زعمه عندما ادعى أن القانون المدنى الإسلامى قد تأثر بالقانون التلمودى الحاخامى. حيث يلاحظ جولدتسيهر حول هذا الموضوع «إن الشك مع هذا يظل مشروعاً فيما يتعلق بعدد كبير من هذه التطابقات. ويمكن أن نتساءل أليس القانون الرومانى - الذى لايمكن إنكار تأثيره على تطور الشريعة الإسلامية - هو الذى يجب اعتباره المصدر المباشر المؤثر فى المشرعين المسلمين» (نفس المرجع، ص 657a). لكنه يرجعنا بهذا الحديث إلى معركة أخرى أكثر غموضاً كان طرفاً فيها من قبل عن طريق دراسة سطحية، باعترافه، (Mohammadanisch Studien II, p 75, n. 2) بعنوان (عند بداية علم الفقه الإسلامى Budapest, 1884, Abhandlungen ber ungar Akademie der Wissenschaften). وقد وعد بأن يتعمق فى هذا البحث. لكنه لم يف بوعده على مايبدو. ويعطى فى الدراسة المذكورة نماذجاً من التطابق بين القواعد القانونية الإسلامية واليهودية مدعياً أن الأولى استلهمت من هذه الأخيرة:

(أ) الاستصلاح فى القانون الإسلامى يعادلها تيقون ها عسلام Taqûn ha 'islam فى القانون اليهودى.

(ب) الاستصحاب = Praesumptio فى القانون الرومانى.

(جـ) تقول القاعدة القانونية: «القاضى لا يحكم بعلمه» (القاضى لايجب أن يحكم حسب معرفته الخاصة ولكن ببراهين موضوعية)، فى القانون الإسلامى، والتى يقابلها القاعدة التلمودية «القاضى لايجيب بعقله».

هذه القاعدة الأخيرة درس فى الحذر يعطيها جولدتسيهر وكان الجدير به أن يتعظ منها. لكنه للأسف نادراً مافعل مثلما ظهر من خلال هذا الفصل.

الفصل السادس

الصــــــابئون فى القـــــرآن

من اصعب المسائل التى جابهت مفسرى القران هى تعريف «الصابئون» حيث نكر هذا الاسم ثلاث مرات فى الآيات التالية:

١ ـ سورة المائدة، الآية ٦٩: ﴿إن الذين امنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من امن بالله واليوم الاخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٦٢: ﴿إن الذين امنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من امن بالله واليوم الاخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

٣ ـ سورة الحج، الآية ١٧: ﴿إن الذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد﴾.

ولنطالع الآن مختلف آراء المستشرقين الذين تعرضوا بإسهاب لتفسير هذا المسمى.

اولاً: يعتقد سبرنجر A. Sprenger انهم هم الحنفاء، ويشاركه الاعتقاد بيدرسن J. Pedersen.

(Oriental Studies Presented No E.G Burung Cambridge,1923,p386sqq.,391).

اما نحن فنعتقد أن هذا الرأى خاطىء للأسباب التالية:

(1) ان الحنفاء كما يؤكده الشهرستاني فى الملل والنحل كانوا معارضين للصابئين. فالديانتان مختلفتان كل الاختلاف عن بعضهما البعض ومتعارضتان. فالحنفاء هم اتباع إبراهيم، اما الصابئة فيعبدون الكواكب، وهى العبادة التى رفضها إبراهيم (القرآن، سورة الأنعام، الآيات ٧٦ ـ ٨٧).

(ب) لم يذكر مطلقاً فى القرآن أن للصابئة كتاب مقدس، بينما جاء فيه أن لإبراهيم صحف (القرآن، سورة الأعلى، الآية ١٩ - سورة المجادلة، الآية ٣٨).

ثانياً: أما هوروفيتز J. Horovitz (Koranische Vnteropungen, p 121 sqq)، يعلن من جهته أن الصابئين هم طائفة أو مجمل طوائف المعمدانيين baptistes من نوع المندائيين. ويعرض هانس هاينريش شيدر Hans Heinrich Schàder لنفس الرأى فى مقال (in Die welt de Orients - Heft 4, p 290 Stuttgart 1949) قائلاً: «لقد سبق لمحمد أن سمع فى مكة عن المعمدانيين البابليين، وهم ما أطلق عليه الصابئون المذكورين ثلاث مرات فى القرآن. ويعود اسمهم هذا إلى الشكل البابلى - الآرامى للكلمة ومعناه: غطس الشىء فى الماء أى عمادته». ويتبنى بيل R. Bell نفس الرأى (Orign of Islam, p 60 sqq).

ثالثاً: ويقول كارا دى فو Carra de Vaux فى مقال (القرآن ومكانته فى قاموس اللاهوت الكاثوليكى) (Coran, sa composition, in le dictionnaier de Theologie Catholique, t. III, 2eme partie, col, 1778, Paris 1923).

«باقى القوانين المحمدية مستعار من اليهود والمسيحيين أو من طوائف توفيقية نابعة من التأليه الطبيعى Déisme. وكان يطلق على عدد من هذه الطوائف اسم الصابئين. أما الأدب العربى فيعرف نوعين من الصابئين: أولئك الذين ذكروا فى القرآن. وأولئك الذين سكنوا فى حران. ولقد درجت هذه الطوائف على عبادة الكواكب وممارسة الوضوء. ويعتبر محمد الصابئين من أهل الكتاب، أى من بين الأمم التى تمتلك كتباً مقدسة. والظاهر أنه استوحى منهم مذهب النبوة وأساطير الأنبياء وعادة الوضوء لكنه هاجم عبادة الكواكب. ويبدو من خلال الأهمية التى أعطاها للملائكة وللجن أنه تأثر بالطوائف الفارسية».

علينا أن نلاحظ أن نص كاردى فو فيه كثير من الخلط:

- خلط بين الطوائف المعمدانية وبين من يعبدون الكواكب.

- خلط بين عماد الطوائف المندائية وبين الوضوء قبل كل صلاة فى الإسلام.

ـ خلط بين قصص الانبياء فى القران وبين القصص المذكورة في كتب المندائيين المقدسة خاصة كتابهم الاكبر: الجينزا Ginza.

لنترك جانباً اطروحات كاردى فو ونتناول الراى ـ او الآراء ـ الذى ادلى به هانس هاينريش شيدر:

ربما يكون محمد قد سمع عن المندائية. ومن الجائز ان يكون اخبره عنها سلمان الفارسى الذى كان على دراية بالطوائف الدينية المنتشرة في موطنه الاصلى، بلاد الفرس، (انظر: ل. ماسينون: سلمان باك، باريس ١٩٣٠، Massignon: Sâlman Pak, Paris 1930، والذى ترجمناه للعربية، القاهرة ١٩٢٧، فى شخصيات قلقة فى الإسلام).

ويكون طبقاً لهذا الطرح اسم الصابئين مأخوذاً من كلمة mas bûta اى غطس الشىء فى الماء وهذا اهم الطقوس لدى المندائيين.

لكن يصعب تبرير هذا الاشتقاق بالنظر للغة العربية. حيث أن فعل «صبأ» معناه الأصلى بالعربية التخلص. ثم مجازاً ترك ديانة للدخول فى ديانة أخرى. واسم الفاعل هو صابىء وجمعه السليم هو الصابئون. وبالتالى يشرح ابو إسحاق كلمة صابئون فى تفسيره للقران على انها: أولئك الذين تركوا ديانة ليعتنقوا أخرى. (انظر الزبيدى: تاج العروس فى صبأ. الجزء الأول، ص ٣٠٧. طبعة الكويت). والسؤال هو اية ديانة تركوا؟ اليهودية أم المسيحية؟. وكما يقول كولب C. Colpe (in Encyclopedie: Die religion in Geshichte und gegewart, t. VI, sv Mandàer, p. 711): «علينا البحث عن اصل المندائيين فى طوائف المعمدانية الهراطقة اليهودية أو المسيحية التى كانت تتمركز فى المناطق الحدودية لسوريا وفلسطين. والإثبات على هذا هو المصطلح 'sb بدلاً من 'md للإشارة إلى الغطس فى الماء، وكذلك الإيحاءات المتفرقة حول الانفصال عن اليهودية والمسيحية».

وإذا أخذنا بالاشتقاق العربى فإننا نصل إلى أن الصابئين هم منشقين تركوا الديانة اليهودية او المسيحية لتاسيس ديانة اخرى.. لكن يبقى أن نعرف أى ديانة تركوا: اليهودية ام المسيحية؟

ولو استندنا إلى ما أشار إليه القديس إبيفان Saint Epiphane (Haeres, XI) من أن الصابئين هرطقة سابقة للمسيحية تنطبق على الذين يعمّدون يومياً والذين ذكروا فى نصوص أخرى خاصة اليونانية على انهم وجدوا قبل المسيح فى المناطق المجاورة لنهر الاردن. (Hégésippe dans Eusébe HE, IV, 22, 5; Const. Apost, VI, 6; Pseudo - Jérôme, Ind. Haeres, Epiphane, Haeres, XVIII init., XIX 5, cf. Justin, Dialog., 50).

اما النصوص التلمودية فتشير إليهم واصفة إياهم بالذين يعمّدون فى الصباح الباكر.

(Berachoth, XXII a, Tosephata Ladaîm, II". G. Bardy in Dict. Théol. Catholique tr IX, 2eme partie, col. 1814).

طبقاً لكل ماسبق يكون الصابئون قد تركوا الديانة اليهودية!

اما الشهرستانى فيرجعهم إلى تاريخ ابعد. إذ يؤكد انهم وجدوا فى عهد إبراهيم. ونعرض فيما يلى مختلف التعريفات التى اقترحها المفسرون المسلمون وفقهاء اللغة:

اولاً: الصابئون فى كتاب «الجوهرى»: الصحاح، هم قوم يشبه دينهم أهل الكتاب.

ثانياً: فى معجم الأزهرى: «التهذيب» الصابئون هم قوم يشبه دينهم دين النصارى ويزعمون أن يتبعون دين نوح.

ثالثاً: يقول البيضاوى فى تفسيره: يقال إنهم يعبدون الملائكة كما يقال أنهم يعبدون الكواكب.

ولقد خصص لهم الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل فصلاً واسعاً، حيث يعرض فيه لمذهبهم على شكل مجادلة بين الصابئة والحنفية، فخرج من هذا الجدال بنتيجة أن الصابئة يؤسسون ديانتهم على فكرة الروحانيات التى تلعب دور الوسيط بين الله الخالق الحكيم وبين الناس، هذه الروحانيات نقية جوهراً وفعلاً وحالة، جواهراً لانها نقية من شوائب المادة ومتحررة من عوائق الحركة ومن التغيرات الزمنية. هذه الروحانيات هى كما جاء فى تعاليم المعلمين الاوائل هرمس: Hermes واجدامون Agadémon، وهما اللذان

يشفعان لهم لدى الله إله الآلهة. وللوصول إلى هذه الروحانيات يتوجب على الصابئة ان يطهروا ارواحهم من الرغبات الطبيعية والتخلص من اى نزعة غريزية. وبعدما يتطهرون يستطيعون التقرب من هذه الروحانيات وعرض مشاكلهم عليها حتى تتوسط لهم لدى الله (الشهرستانى).

يتبين من هذا العرض الذى يقدمه الشهرستانى ان ديانة الصابئة قد تأثرت كثيراً بالثنائية الإيرانية. لكن هذا يبعدنا عن موضوعنا.

وحتى لو كان الأمر كذلك فإن القران يميز بينهم وبين المجوس مثلما جاء فى سورة الحج، الآية ١٧. ونتساءل بعد هذا: لماذا يقول عنهم القران: **﴿إن الذين امنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** (سورة المائدة: الآية ٦٩).

و**﴿فلهم اجرهم عند ربهم﴾** (سورة البقرة: الآية ٦٢). هل يمكن اعتبارهم إذن من بين أهل الكتاب؟ لكن القران لايذكر عنوان كتابهم بينما جاء ذكرالتوراة والإنجيل. وكيف ان يمكن ذكر كتابهم: الجنزا أو الكنز بينما لم يجمع ولم ينسخ إلا فى القرن السابع والثامن الميلادى؟. ويقال ان الصابئون نسخوه ليقووا مركزهم أمام السلطة الإسلامية ويصبحوا من اهل الكتاب بحيث يعاملون مثل اليهود والمسيحيين.

ونشير من جهة أخرى ان الصابئين لايعترفون بالأنبياء اعتقاداً منهم ان الانبياء مجرد بشر، ويذكر الشهرستانى انهم يعتبرون ان الأنبياء من جنس البشر لهم نفس الشكل؛ ومخلوقين من نفس المادة، ياكلون ما ناكل ويشربون مانشرب. وانهم بشر مثلنا. فلماذا إذن نحن مضطرون لطاعتهم؟ ماذا يميزهم عنا حتى نتبعهم؟ **﴿ولئن اطعتم بشراً مثلكم إنكم لخاسرون﴾** (سورة المؤمنون، الآية ٣٤).

هذه هى فلسفة الصابئة. كيف وضعهم محمد إذن فى نفس مرتبة اليهود والمسيحيين؟

والإشارة للآية ٣٤ من سورة المؤمنون تفسر لنا لماذا يقول الليث الذى ذكره الأزدى فى التهذيب والفيروزبادى فى القاموس ان الصابئون يزعمون أنهم على دين نوح. إذ بعدما يتحدث القران عن قصة نوح نجده يتحدث عن رسول ينحدر من جيل تالى لقوم نوح دعا

شعبه لعبادة الله، لكن شعبه رفض دعواه قائلاً ﴿ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون﴾ (سورة المؤمنون: الآية ٣٣ – ٢٤٤).

هذا برهان أخر ضد من يؤكدون أن الصابئون المذكورين في سورة المائدة: الآية ٦٩، وسورة البقرة: الآية ٦٢، هم القوم الذين يزعم أنهم على ديانة نوح. لأن القران يدين هؤلاء بينما يمدح أولئك المشار إليهم في الآيات أعلاه.

نحن إذن أمام مشكلة معقدة. فالصابئون المذكورين في الآيات السابقة الذكر وفي الآية ١١ من سورة الحج ليسوا هم الصابئة الذين وصفهم الشهرستاني ولا هم أتباع نوح كما قال الليث، الأزدي والفيروزيادي. وليسوا أيضاً المندبين مثلما يدعيه هوروفيتز وشيدر وغيرهم. فليس في معتقداتهم مايمكن أن يكون قد أثر على محمد: عبادة الكواكب، عدم الاعتراف بالنبوة، الثنائية الكوسموجونيا، الطقوس، التعميد.

أما إشارة باردي G. Bardy (dict, Théo cath. IX, 2 vol. 1814) إلى الطائفة التي سماها القديس إبيفان Saint Epiphane (odversus gaeres, p 6. t. 41, col 233): Sebuaes, Sebouaioi، مغلوطة. لأن هذا الأخير لايقول شيئاً عن معتقدات هذه الطائفة ولم يتحدث سوى عن تبديلهم لتواريخ بعض الأعياد اليهودية. إضافة إلى ذلك نجد أن باردي يخلط دون تقديم حجج على قوله بين القوم الذين تحدث عنهم إبيفان وهم اميروباتسنا Hemeropaptistes في الفصل السابع عشر وبين الناصريين الذين يذكرهم في الفصل الثامن عشر (PG, 41, col 255 - 259). وحتى لو مزجنا بين هذه الطوائف اليهودية الثلاثة فإننا لانصل إلى نتيجة تجعلنا نفسر الثناء على الصابئين في القران. هل هذا يعني أن التوصل لحل لغز الصابئون في القران أمر ميئوس منه؟

نعم. هذه خلاصة الكلام في الموضوع.

الفصل السابع

الرُسل فى القرآن:
نقد لابتكار فينسنك

من بين الآراء الخيالية - وما أكثرها! - التي عرضها فينسنك الرأي الذي يقول فيه: «فكرة الرسل كمبشرين كل منهم إلى شعب مختلف، ربما وصلت إلى محمد عن طريق قنوات مسيحية، حيث أن المسيحية تسعى للانتشار. والفرق يكمن في الحقيقة في أن محمد والمسلمين لايعرفون أي شيء عن الرسل الإثنى عشر».

أبدأ وأسأل نفسي: لماذا لم يتسن لمحمد الإطلاع على فكرة «الرسل» المبشرين إلا من خلال المسالك المسيحية؟ ألم توجد فكرة الرسل الداعين إلى ديانة والمبعوثين إلى شعب ما موجودة لدى اليهود؟

لقد تكررت هذه الفكرة في عدة مواضع من العهد القديم:

١ - في سفر الملوك الأول، الأصحاح ١٤، الآية ٦، ٧ «.. أنا مرسل إليك بقول قاس. اذهبي قولي ليربعام هكذا قال الرب إله إسرائيل. من أجل أني قد رفعتك من وسط الشعب وجعلتك رئيساً على شعبي إسرائيل».

٢ - في سفر إشعياء، الأصحاح، الآية ٨، ٩: «ثم سمعت صوت السيد قائلاً من أرسل ومن يذهب من أجلنا. فقلت هأنذا أرسلني. فقلت اذهب وقل لهذا الشعب....».

ويقابل كلمة رسول باللغة العبرية كلمة شَالُوحْ Shaloh، وقد ترجمت إلى الإغريقية بكلمة apostolos.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الكلمة ابستلس apostolos لها عدة استعمالات ومعاني في العهد الجديد:

١ - في إنجيل متى (١٠، ٢)، وإنجيل مرقس (٦، ٣٠)، وإنجيل لوقا (٦، ١٣) المقصود منها الرسل الإثنى عشر الذين لم يشر إليهم القرآن مطلقاً، باعتراف فينسنك. (حيث لم يرد سوى اسم للجنس: الحواريون).

٢ ـ أما فى إنجيل لوقا ١١، ٤٩ فإن كلمة ابستلس apostolos يشار بها إلى رسل الله «لذلك أيضاً قالت حكمة الله إنى ارسل إليهم انبياء ورسلاً».

٣٢ ـ وفى الرسالة الثانية إلى أهل كورنتس ٨، ٢٣) والرسالة إلى أهل فيلبى (٢، ٢٥) يقصد بها مبعوثى الكنيسة.

ولو كان فعلاً لمحمد ان يطلع على فكرة الرسل المبعوثين لشعوب لفعل ذلك متأثراً باليهود وليس بالمسيحيين!

ولا نقول بهذا أن محمد قد إطلع على فكرة الرسل من أولئك وليس من هؤلاء! لكننا نحاول فقط إثبات انه لم يأخذ هذه الفكرة من احد. والإثبات على ذلك أن فكرة رسول الله فكرة مختلفة تماماً عن فكرة الشَلُوحْ shaloh بالعبرية والابستلس apostolos بالإغريقية.

مفهوم رسول الله مختلف عن المفهوم اليهودى لأن الرسول فى الإسلام ليس مجرد مبعوث من عند الله يعلن ويعرض أمراً. فمهمته التى يتولاها طوال حياته هى أن يعلن عن ديانة وأن يجيىء بكتاب مقدس. بحيث تتجاوز مهمته مجرد النبوة لأن النبى لايجيىء بكتاب مقدس.

ولهذا السبب تذهب كتب الفقه الإسلامية إلى التمييز بين (الرسول) و(النبى). فالرسول هو مبعوث الله ليدعو إلى ديانة ويقدم للناس كتاباً مقدساً يعبر عن كنه هذه الديانة. أما النبى فمهمته تنحصر فى الدعوة والإعلام والتنبيه. بناءً عليه فإن مايطلق عليه بالعبرية الشَلُوحْ shaloh مبعوث لشخص بعينه أما الرسول فى الإسلام فمبعوث إلى أمة.

ويختلف مفهوم الرسول في الأناجيل ولدى الكنيسة المسيحية. فالرسل الإثنى عشر ليسوا رسل الله بل رسل المسيح. إضافة إلى أن لا أحد من بينهم جاء بكتاب مقدس. فكل واحد منهم يدعو لنفس الديانة ويحمل نفس الأخبار. بالتالى نجد أن معنى كلمة رسول فى الإسلام مختلفة عن كلمة apostolos فى المسيحية.

هذا يفسر لنا لماذا لايطلق القرآن على الرسل الإثنى عشر اسم الرسل، فهم مجرد أتباع ليسوع: حواريون. وهى كلمة يرجعها نولدكه إلى أصل إثيوبى فى أبحاث عن علم

(Nöldeke: Beitrage zur Zemiteschen Sprachwisseuchaftt, اللغــات الســامية. p. 48)

اما المعاجم العربية فتقترح عدة تفسيرات اقربها إلى الصواب تلك التى تقول إن الحوارى هو: الحميم، الشديد الوفاء. ويذكر فى سياق هذا التفسير أن الرسول قال عن الزبير بن العوام إنه حواريى، بمعنى من عشيرته ومن اقرب الصحابة (تاج العروس: الجزء ١، ص ١٠٢، طبعة الكويت). وبناءً عليه سمي المقربون للرسول بالحواريين. ويقال عن الحوارى أنه النصير (نفس المرجع). ولقد حمل لفظ الحواريون الذى جاء فى القران هذا المعنى، حيث استعمل لوصف انصار يسوع: سورة ال عمران، الآية ٥٢: **﴿فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصارى إلى الله قال الحواريون نحن انصار الله امنا بالله واشهد بانا مسلمون﴾**.

وفى الأخير نشير إلى بعض الإحصائيات تبين مدى أهمية فكرة الرسول فى القران:

١ ـ لقد جاء ذكر كلمة رسول ١٤٦ مرة، ثلثها متعلق بمحمد.

٢ ـ كلمة رسوله جاء ذكرها ٨٤ مرة، وكلمة رسولنا ٤ مرات.

٣ ـ مفهوم الرسول فى الإسلام يكتسى أهمية كبيرة تفوق بكثير أهميته فى اليهودية والمسيحية. لهذا نقول إنه لامجال للمقارنة بين المسيحية والإسلام.

والإيحاء بان الإسلام قد اقتبس من غيره غباء صرف!

الفصل الثامن

قراءة لتصور يونانى خيالى للقرآن

لقد عرفنا كيف قام مستشرقون مثل (هيرشفيلد وجولدتسيهر وهورفيتز وتورى) بقراءة القرآن من منظور يهودى وكيف ذهب آخرون (موبير، بيل، ارنز.. إلخ) إلى قراءة مسيحية أو يهودية مسيحية.

وسنعرض فى هذا الفصل على سبيل التهكم والمداعبة لرأى يونانى ونرى كيف كان سيقرأ ويفسر القرآن.

كان سيدعى أن: القرآن استعار أفكاراً عديدة من الفكر اليونانى:

(أ) استعار من أرسطو مفهوم الفضيلة كوسط بين نقيضين (ارسطو: الأخلاق إلى نيقوماخوس) (Ethique à Nicomoque II, 6, 1106 b36)

إذ يقول القرآن: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (سورة البقرة: الآية ١٢٤).

لقد أكد الفقهاء المسلمون - ولازالوا - على صفة الوسطية فى الإسلام كعلامة مميزة لهذا الدين. إذ يحافظ هذا الأخير دائماً على الوسط بين الإفراط والتفريط بين الأقصى وبين الأقصى الآخر سواء كان هذا فى أخلاقياته أو فى مفهومه التشريعى أو فى معتقداته أو طقوسه..إلخ.

فالإسلام كلمة ودين ذكر فى القرآن على أنه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ (سورة آل عمران: الآية ١١٠).

(ب) لقد مجد القرآن الإسكندر الأكبر فى سورة الكهف من الآية ٨٣ - ٩٨، حيث ذكر تحت اسم ذو القرنين: ﴿إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً. فأتبع سبباً. حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها

قوماً قلنا ياذا القرنين إما ان تعذب وإما ان تتخذ فيهم حسناً. قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً واما من امن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى وسنقول له من امرنا يسرا﴾، وهو الذى اقام سداً بين يأجوج ومأجوج وبين المؤمنين. لقد كان الإسكندر الاكبر إذن حاكماً مثالياً وعادلاً.

(جـ) لقد جاء ذكر اسطورة سيزيف فى القران. وتروى الأوديسة محنة سيزيف (11, 593sqq) على انها محنة لاتنتهى، كلما صعد سيزيف بالصخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه تسقط ثانية فيعيد الكرّة. ويظل هكذا طول الدهر.

ونجد أن القران يصف نفس المحنة فى سورة المدثر، الآية ١٦ ـ ١٧: **﴿كلا إنه كان لاياتنا عنيدا. سارهقه صعوداً﴾**.

(د) نقرأ فى القران: **﴿وجعلنا من الماء كل شيء حى﴾** (سورة الأنبياء: الآية ٣٠). و**﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾** (سورة النور: الآية ٤٥). إنها فكرة طاليس (٦٤٠ ـ ٥٦٢ ق.م)، الذى اكد أن الماء هو أساس الكون وأن كتلة المياه تحيط بكل العالم، فالماء هو مصدر الحياة وسبب الخصوبة وضرورى للزرع.

ـ ذكر فى القران أن: **﴿الله نور السماوات والأرض... نور على نور﴾** (سورة النور: الآية ٣٥). ونجد أن فى الأفلاطونية المحدثة وخاصة عند مؤسسها افلوطين Plotin (٢٠٤ ـ ٢٧٠م) أن النور هو المبدأ الأول والكون بأسره ماهو إلا انعكاس لهذا المبدأ «إنه نور من نور» (phôs ek photos).

ولقد اسس الإشراقيون على الآيتين اعلاه مدرستهم ومذهبهم الذى وضع دعائمه الأولى السهروردى المقتول (؟ ـ ١١٩١).

ـ وجاء فى سورة الجاثية، الآية ٢٤: **﴿وقالوا ماهى إلى حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾**.

يمكن أن نفترض أن هنا إيحاء فى هذه الآية إلى الأبيقوريين الذين يعتبرون أن الحياة وحدها جديرة بالاهتمام. ولايمثل الموت شيئاً بالنسبة لهم. فقد اسقطوه من اهتماماتهم.

وبالتالى يدعون إلى التمتع بملذات الحياة الفانية لأنه لاوجود للروح الخالدة وللبعث بعد الموت. ويعتقدون أن الروح مجرد جسد داخل جسد اخر مكونة من ذرات تضمحل عندما يحل الموت ولايبقى شيئاً «الموت لاشيء بالنسبة لنا. طالما نحن موجودون لا وجود للموت وعندما يأتى الموت نصبح لاشيء». (Epicurus: Epistulae tres et rata sententia, 111, 124, Leipzig, 1922; Lucretius, De rerum natura, 111, V. 828 sqq).

ويرى أبيقور ان الآلهة مجرد ذرات دقيقة تعيش بأعداد لامحدودة فى مساحات لامحدودة توجد مابين العوالم. وحتى الآلهة لاتهتم بشيء اخر سوى سعادتها. (Cicéron, Natura deorum, 1, 51)

إن إشارة القرآن إلى مذهب الأبيقوريين يدل على ان هذا المذهب قد انتشر فى شبه الجزيرة العربية. ويبدو أن سكانها قد اعتنقوا المذهب دون معرفة صاحبه. وهذا أمر شائع فى تاريخ الإنسانية.

حان الوقت الآن لنضع حداً لهذه المداعبة والا لوقع صاحبنا اليونانى فى نفس أخطاء هيرشفيلد، جولدتسيهر، هوروفيتز والآخرون!



الفصل التاسع

«البســــملة»
هل أصلها إنجيلى؟

يدعى نولدكه - شفالى (تاريخ القرآن، المجلد الأول، ص ١١٦) Geschichte de) Qorans 1, p 116) أن العبارة التى تستهل بها كل سورة من سور القران (فيما عدا سورة براءة Barâ'ah) (التوبة) «يرجع إلى استخدام لغة الإنجيل المتداولة، ثم يحد من هذا التاكيد مضيفاً أن: تغيير لغة القران امتداداً للغة الإنجيل فيما عدا بعض الألفاظ مثل «بسم الله»، و«قل» (٣، ١٧) التى استخدمها القران بطريقة مختلفة عما جاء فى الإنجيل».

ويقول أن الأصل العبرى للعبارة باسم يهوا yahwa bishm فى العهد القديم. اما اصلها اليونانى فيوجد فى العهد الجديد en onomeati kouriou.

لكنى بحثت دون جدوى فى العهد القديم عن عبارة yahwa bishm كعبارة صلاة وابتهال لله مثلما هو الحال بالنسبة للبسملة فى القران. وهذا هو المكان الوحيد الذى استعملت فيه عبارة yahwa bishm فى العهد القديم. سفر الملوك الأول، الأصحاح ١٨٨، الآية ٢٤: «ثم تَدْعون باسم الهتكم وانا ادعو باسم الرب يهوا (yahwa)».

يظهر جلياً ان ليس هناك اى تشابه فى هذا مع البسملة. ويجب أن يكون المرء ابلهاً حتى يدعى أن اصل البسملة: بسم الله الرحمن الرحيم، يرجع إلى هذه الآية الإنجيلية.

ولقد استعملت عبارة باسم يهوا yahwa bishm فى اية إنجيلية أخرى بمعنى معونة يهوا yahwa وليس بمعنى الابتهال. إنها الآية ٤٥ من سفر صموئيل الأول، الأصحاح ١٧ «فقال داود للفلسطينى انت تاتى إلىّ بسيف وبرمح وبترس. وانا آتى إليك باسم الرب yah-wa bishm». وهذا هو معنى عبارة yahwa bishm فى عدة أجزاء من العهد القديم. (مثلاً: ايوب ١ ـ ٢١، المزامير).

وبما ان هذه الأجزاء لم تستعمل فيها العبارة بمعنى الابتهال لله فإنها خارج نطاقنا.

اما فيما يتعلق بالعهد الجديد فإن نولدكه - شفالى يعودان إلى اية ١٧ من الأصحاح الثالث من رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثا: «وكل ماعملتم بقولٍ أو فعل فاعملوا الكل باسم الرب يسوع شاكرين لله والآب به».

فلنتساءل الآن ما علاقة هذه الآية بالبسملة؟ والجواب بسيط: لا علاقة لدرجة أن هذه الآية متناقضة تماماً مع مفهوم ومعنى البسملة.

لكن تعنت نولدكه - شفالى لا حدود له. وهاهم يواصلون قولهم: «وذلك يرجع ايضاً الموضوعان بالقرآن التى توجد فيها البسملة إلى مصادر يهودية بصرف النظر عن عناوين السور (سورة هود، الآية ٤٢، وسورة النمل، الآية ٣٠» (المرجع السابق ص ١١٧).

لكنهم لاينكرون اى مصدر يهودى. مما يدل على أن إدعائهم لا اساس له من الصحة. لهذا لم يورد كارا دى فو Carra de Vaue (فى فصل البسملة) ووالس A.T. Welech (فصل القرآن) زعم نولدكه - شفالى المغلوط ضمن مقالات موسوعة الإسلام (الطبعة الثانية) Encyclopedie de l"Islam (2eme éd).

الفصل العاشر

فشـــل أى محــاولة لترتيـــب القــرآن ترتيبـــاً زمنيـــاً

لقد تعددت وتضاربت محاولات العلماء المسلمين القدامى وكذلك محاولات المستشرقين الأوروبيين المحدثين التى انصبت على ترتيب السور القرآنية زمنياً.

أولا- الترتيب لدى المسلمين

يتفق العلماء المسلمين الذين تناولوا هذه المسألة على تقسيم السور القرآنية إلى سور مكية وأخرى مدنية. لكنهم وضعوا قوائم مختلفة نوعاً ما عن هاتين الحقبتين. لنرى معاً هذه القوائم وفقاً للترتيب الزمنى الذى اختاره واضعوها.

١ - يعطى ابن النديم فى «الفهرست» القائمة الزمنية التالية:

(أ) الحقبة المكية:

٩٦ (١ - ٥)، ٦٨، ٧٣، ٧٤، ١١١، ٨١، ٨٧، ٩٤، ١٠٣، ٨٩، ٩٣، ٩٢، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٥، ١١٢، ١١٣، ١١٤ (ويقول أخرون إن هذه السورة مدنية)، ٥٣، ٨٠، ٩٧، ٩١، ٨٥، ٩٥، ١٠٦، ١٠١، ٧٥، ١٠٤، ٧٧، ٥٠، ٩٠، ٥٥، ٧٢، ٣٦، ٧ (أم ص، لكنها سيعاد ذكرها ثانية فيما بعد تحت اسمها المعروف الأعراف من بين السور المكية)، ٢٥، ٣٥، ١٩، ٢٠، ٥٦، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ١٧، ١١، ١٢، ١٠، ١٥، ٣٧، ٣١ (وأخرها مدنية)، ٢٣، ٣٤، ٢١، ٣٩ - ٤٥، ٤٦ (أخرها مدنية)، ٥١، ٨٨، ١٨ (أخرها مدنية) ٦ (وتتضمن اية مدنية) ١٦ (أخرها مدنية) ٧١، ١٤، ٣٢، ٥٢، ٦٧، ٩٠، ٧٠، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٣٠، ٢٩، ٨٣، ٥٤، ٨٦.

(ب) الحقبة المدنية:

٢، ٨، ٧ (انظر أعلاه)، ٣، ٦٠، ٤، ٩٩، ٥٧، ٤٧، ١٣، ٧٦، ٦٥، ٩٨، ٥٩، ١١٠، ٢٤، ٢٢، ٦٣، ٥٨، ٤٩، ٦٦، ٦٢، ٦٤، ٦١، ٤٨، ٥، ٩.

وترجع هذه القائمة إلى الزهرى كما ذكر محمد بن نعمان بن بشير.

٢ ـ قائمة عمر بن عبدالكافى:

(ا) الحقبة المكية:

٩٦، ٦٨، ٧٣، ٧٤، ١١١، ٨١، ٨٧، ٩٢، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ١٠٣، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٩، ١٠٥، ١١٣، ١١٤، ١١٢، ٥٣، ٨٠، ٩٧، ٩١، ٨٥، ٩٥، ١٠٦، ١٠١، ٧٥، ١٠٤، ٧٧، ٥٠، ٩٠، ٨٦، ٥٤، ٣٨، ٧، ٧٢، ٣٦، ٢٥، ٣٥، ١٩، ٢٠، ٥٦، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ١٧، ١٠، ١١، ١٢، ١٥، ٦، ٣٦، ٣١، ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥١، ٨٨، ١٨، ١٦، ٧١، ١٤، ٢١، ٢٣، ٣٢، ٥٢، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٣٠، ٢٩، ٨٣.

(ب) الحقبة المدنية:

٢، ٨، ٣، ٣٣، ٦٠، ٤، ٩٩، ٥٧، ٤٧، ١٣، ٥٥، ٧٦، ٦٥، ٩٨، ٥٩، ١١٠، ٢٤، ٢٢، ٦٣، ٥٨، ٤٩، ٦٦، ٦٢، ٦٤، ٦١، ٤٨، ٥، ٩.

لايوجد فرق كبير بين القائمتين:

(ا) الحقبة المكية:

- من ٩٦ إلى ٨٧ نجد نفس الترتيب.
- من ٩٤ (القائمة الأولى) إلى ٩٠: نفس الترتيب.
- من ١٩ إلى ٣٤: الترتيب يكاد يكون نفسه.
- من ٣٤ إلى ١٨: الترتيب نفسه.
- من ٣٢ إلى ١٨: الترتيب نفسه.

(ب) الحقبة المدنية:

لقد اتبع العالمان نفس الترتيب فى القائمتين. لكن لانجد فى هاتين القائمتين مايفسر لنا على اى أساس اعتمد هذا الترتيب الزمنى.

٣ ـ أما القوائم الأخرى التى جاءت فى الإتقان للسيوطى وفى كتاب المبانى ليست مختلفة كثيراً عن القائمتين القديمتين

(أ) ورد شك فى المبانى al-Mabâni حول السورة ٩٣. هل هى مكية أم مدنية؟

(ب) فى قائمة ذكرت فى الإتقان ـ ويعود إسنادها إلى عكرمة. وضعت السورة ٤٤ بعد ٤٠، و ٣ بعد ٢ واعتبرت السورة ٨٣ كأول سورة مدنية.

(جـ) وتضع القائمة رقم ٤ التي جاءت فى المبانى ـ وتعود إلى سعيد بن المسيب ثم إلى على وإلى النبى ـ السورة ٩٣ قبل ٧٣ و٥٥ بعد ٩٤، و١٠٠ بعد ١٠٥، و٢٢ قبل ٩١، و٦٩ قبل ٢٤، وتعتبر السورة ١٣ أول سورة مدنية والسور ٥٦، ١٠٠، ١١٣، ١١٤ كآخر سور فى الفترة المدنية.

٤ ـ واعتمد واضعوا الطبعة الحكومية المصرية للقرآن التى صدرت فى ١٣٢٢هـ/ ١٩٢٤م الترتيب الآتى:

(أ) الفترة المكية:

٩٦ ـ ٦٨ (فيما عدا ١٧ ـ ٣٣، ٤٨ ـ ٥٠ مدنية) ـ ٧٣ (١٠ ـ ١١ ـ ٢٠، مدنية) ـ ٧٤ ـ ١ ـ ١١١ ـ ٨١ ـ ٨٧ ـ ٩٢ ـ ٨٩ ـ ٩٣ ـ ٩٤ ـ ١٠٣ ـ ١٠٠ ـ ١٠٨ ـ ١٠٢ ـ ١٠٧ ـ ١٠٩ ـ ١٠٥ ـ ١١٣ ـ ١١٤ ـ ١١٢ ـ ٥٣ ـ ٨٠ ـ ٩٧ ـ ٩١ ـ ٨٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠١ ـ ٧٥ ـ ١٠٤ ـ ٧٧ ـ (٤٨ مدنية) ـ ٥٠ ـ (٣٨ مدنية) ـ ٩٠ ـ ٨٦ ـ ٥٤ ـ (٥٤ ـ ٥٦ مدنية) ـ ٣٨ ـ ٧ (١٦٣ ـ ١٧٠ مدنية). ٧٢ ـ ٣٦ ـ (٤٥ مدنية) ـ ٢٥ (٦٨ ـ ٧٠ مدنية) ـ ٣٥ ـ ١٩ ـ (٥٨ ـ ٧١ مدنية) ـ ٢٠ (١٣٠ ـ ١٣١ مدنية) ـ ٢٥ (٦٨ ـ ٧٠ مدنية) ـ ٣٥ ـ ١٩ ـ (٥٨ ـ ٧١ مدنية) ـ ٢٠ (١٣٠ ـ ١٣١ مدنية). ٥٦ (٧١ ـ ٧٢ مدنية) ـ ٢٦ (١٩٧، ٢٢٤ ـ ٢٢٧ مدنية) ـ ٢٧ ـ ٢٨ (٥٢ ـ ٥٥ مدنية، ٨٥ خلال الهجرة) ـ ١٧ (٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، ٧٣، ـ ٨٠ مدنية) ـ ١٠ (٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦ مدنية) ـ ١١ (١٢، ١٧، ١١٤ مدنية) ـ ١٢ (١، ٢، ٣، ٧ مدنية) ـ ١٥ ـ ٦ (٢٠، ٢٣، ٩١، ١١٤، ١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ مدنية) ـ ٤٠ (٥٦، ٥٧ مدنية) ـ ٤١ ـ ٤٢ (٢٣، ٢٤، ٢٧ مدنية). ٤٣ (٥٤ (مدنية) ـ ٤٤ ـ ٤٥ (١٤ مدنية) ـ ٤٦ (١٠، ١٥، ٣٥ مدنية) ـ ٥١ ـ ٨٨ ـ ١٨ ـ (٢٨، ٨٣، ١٠١ مدنية) ـ

١٦ (١٢٦، ١٢٧، ١٢٨ مدنية) ـ ٧١ ـ ١٤ ـ (٢٨، ٢٩، مدنية) ـ ٢١ ٢٣ ـ ٣٢ (١٦ ـ ٢٠ مدنية) ـ ٥٢ ـ ٦٧ ـ ٧٠ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٢ ـ ٨٤ ـ ٣٠ (١٧ مدنية) ـ ٢٩ (١ ـ ١١ مدنية) ـ ٨٣.

(ب) الفترة المدنية:

٢ (٢٨١، فيما بعد) ـ ٨ (٢٠ ـ ٢٦ مكية) ـ ٣ ـ ٣٣ ـ ٦٠ ـ ٤ ـ ٩٩ ـ ٥٧ ـ ٤٧ ـ (١٣ أثناء الهجرة) ـ ١٣ ـ ٥٥ ـ ٧٦ ـ ٦٥ ـ ٩٨ ـ ٥٩ ـ ٢٤ ـ ٢٢ ـ ٦٣ ـ ٦٨ ـ ٤٩ ـ ٦٦ ـ ٦٤ ـ ٦١ ـ ٦٢ ـ ٤٨ ـ ٥ ـ ٩ (١٢٨ ـ ١٢٩ مكية) ـ ١١٠.

ويكاد يكون هذا الترتيب مطابقاً للقائمة التى وضعها ابن عبدالكافى.

ويعترف واضعوا هذه الطبعة المصرية الذين كان يراسهم خلف الحسينى شيخ المقرئين المصريين بهذا صراحة. حيث ذكروا فى خاتمة الطبعة أنه تم استعارة الترتيب المكى والمدنى من كتب مثل كتاب أبى القاسم أم أعرب وكتاب محمد بن عبدالكافى وكتب القراءات والفقه القرانى وإن كانت متضارية. ويبدو ان واضعى هذه الطبعة لم يبذلوا اى مجهود شخصى. حتى الإشارة التى تلى رقم السور بين القوسين والمقصود منها الآيات التى ضمت فيما بعد للسور القرانية، مستقاة من كتاب الإتقان للسيوطى ومن بعض التفسيرات القرانية. ومايمكن قوله باختصار هو ان عمل هذه اللجنة يفتقد إلى الإبداع. إنه مجرد نقل.

لماذا كرس المسلمون كل هذا الوقت وكل هذا الجهد منذ وفاة النبى لترتيب السور القرانية ترتيباً زمنياً؟

السبب هو طبعاً مسألة «الناسخ والمنسوخ». لأن التشريع الإسلامى الذى نزل على محمد جاء على مراحل. مما جعل بعض القواعد تلغى لحساب أخرى وفقاً للتطور فى الوحى. وأصبحت قضية الناسخ والمنسوخ علماً قائماً بذاته اكتسى اهمية كبرى. فاعتماداً على هذا العلم كانت تصدر القرارات العملية التى تنظم حياة المسلمين. وشرع العلماء المسلمين فى كتابة مؤلفات لاحصر لها فى هذا الصدد منذ القرن الثالث الهجرى.

خاصة انه جاء ذكر مسألة الناسخ والمنسوخ فى مواضع مختلفة من القرآن:

١ - فى سورة البقرة، الآية ١٠٦: ﴿ماننسخ من اية او ننسها نات بخير منها او مثلها﴾.

٢ - فى سورة النحل، الآية ١٠١: ﴿وإذا بدلنا اية مكان اية والله اعلم بما ينزل قالوا إنما انت مفتر بل اكثرهم لايعلمون﴾.

٣ - سورة الحج، الآية ٥٢: ﴿فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله أياته والله عليم حكيم﴾.

فالنسخ يدل إذن على معنيين إما:

(أ) مسح وإلغاء ماقبله كما فى الآية ٥٢ من سورة الحج.

او

(ب) إحلال محل.. كما فى الآية ١٠١ من سورة النحل.

ويمكن تقسيم القران إلى أربعة اجزاء من منظور مسألة النسخ:

١ - فى الجزء الأول لم يطرأ اى نسخ. ويتضمن هذا الجزء ٤٣ سورة هى سورة الفاتحة - سورة يوسف - سورة يس - الحجرات - الرحمن - الحديد - الصف - الجمعة - التحريم - الحاقة - نوح - الجن - المرسلات - النبأ - النازعات - الإنشقاق - البروج - الطارق - الأعلى - الفجر.. إلى اخر القران. فيما عدا سورة التين - العصر - الكافرون.

٢ - جزء ثان يتضمن ايات ناسخة وايات منسوخة فى ٢٥ سورة: سورة البقرة - ال عمران - النساء - المائدة - الحج - النور - الفرقان - الشعراء - الأحزاب - سبا - غافر - الشورى - الذاريات - الطور - الواقعة - المجادلة - المزمل - المدثر - التكوير - العصر.

٣ - يحتوى الجزء الثالث على ايات ناسخة فقط جاءت فى ستة سور: سورة الفتح - الحشر - المنافقون - التغابن - الطلاق - الأعلى.

٤ - يتضمن الجزء الرابع الأربعين سورة المتبقية التى تحتوى على أيات منسوخة.

(لمزيد من التفاصيل ارجع إلى كتاب الإتقان، الجزء الثالث، ص ٦٢ - ٧٧، القاهرة ١٩٦٧، طبعة إبراهيم ابو الفضل).

والغريب اننا نجد أحياناً فى نفس السورة آية منسوخة وآية ناسخة. كما هو الحال فى سورة الاحزاب حيث نسخت الآية ٥٢ بالآية ٩٣. فهذه المسألة معقدة نوعاً ما وهو ما اكد عليه السيوطى ذاكراً ان هناك خلافات كثيرة بين العلماء فيما يتعلق بعدد وبتصنيف الآية الناسخة والمنسوخة. وراح ينظم قصيدة تعليمية يقول فيها رايه بالموضوع (انظر الإتقان، الجزء الثالث ـ ص ٦٨).

انما نحن فنكتفى بهذا القدر ونغلق قوس النسخ الذى لم نذكره فى بحثنا هذا إلا لنؤكد على سبب اهتمام العلماء المسلمين منذ وفاة الرسول بترتيب السور القرانية ترتيباً زمنياً.

ثانيا. الترتيب لدى المستشرقين

بينما لم يبرر واضعى اقدم قائمتى الترتيب الزمنى للقران اختيارهم لهذا الترتيب، راح المستشرقون المعاصرون يدلون بدلوهم. ويحاولون خوض هذه القضية اعتماداً على ابعاد داخلية وخارجية.

١ ـ نولدكه:

لقد قام نولدكه بأول مبادرة جادة لترتيب سور القران زمنياً فى كتابه الهام:

Geschichte de Korans (Gottingen, 1860).

وتعتمد هذه المبادرة على نظرة خارجية ونظرة داخلية، تقوم الأولى على:

(1) الحديث.

(ب) الكتب التاريخية (سيرة ابن هشام، وكتاب الطبرى واليعقوبى.. إلخ).

(جـ) الكتب المتعلقة بأسباب النزول.

اما النظرة الداخلية فتقوم على:

(أ) الأسلوب وخصوصيات الكلام والعبارات.

(ب) القواعد التى جاء بها الوحى طبقاً لتطور رسالة النبى.

(جـ) موقف النبى حيال اليهودية والمسيحية والوثنية العربية.

ويمكن إيجاز ملخص أبحاثه كالآتى، إذ يقول:

أولاً: يجب التمييز، على غرار ماقام به العلماء المسلمين، بين حقبتين هامتين: الحقبة المكية والحقبة المدنية.

ثانياً: يميز نولدكه فى داخل الحقبة المكية بين ثلاث فترات:

١ ـ تشتمل الفترة الأولى على سور قصيرة ذات الآيات المفعمة بالصور، إيقاعها قوى وقافيتها مسترسلة. وتدخل فى هذه الفترة الأولى السور التالية: العلق ـ المدثر ـ المسد ـ قريش ـ الكوثر ـ الهُمزة ـ الماعون ـ التكاثر ـ الفيل ـ الليل ـ البلد ـ الشرح ـ الضحى ـ القدر ـ الطارق ـ الشمس ـ عبس ـ القلم ـ الأعلى ـ الشرح ـ العصر ـ البروج ـ المزمل ـ القارعة ـ الزلزلة ـ الإنفطار ـ التكوير ـ النجم ـ الإنشقاق ـ العاديات ـ النازعات ـ المرسلات ـ النبأ ـ الغاشية ـ القيامة ـ المطففين ـ الحاقة ـ الذاريات ـ الطور ـ الواقعة ـ المعارج ـ الرحمن ـ التوحيد ـ الكافرون ـ الفلق ـ الناس ـ الفاتحة.

٢ ـ وتمتلىء الفترة الثانية بقصص الأنبياء. وقد بدأت تظهر خلال هذه الفترة القواعد التى تحمل دلالات التاريخ المقدس. وأصبحت السور القرانية اكثر طولاً. حيث يُستهل عدد من فقراتها بكلمة «قل». وبدأ استخدام كلمة الرحمن كصفة من صفات الله. والسور التى تنتمى إلى هذه الفترة المكية الثانية هى: سورة القمر ـ الصافات ـ نوح ـ الإنسان ـ الدخان ـ ق ـ طه ـ الشعراء ـ الحجر ـ مريم ـ ص ـ يس ـ الزخرف ـ الجن ـ الملك ـ المؤمنون ـ الأنبياء ـ الفرقان ـ الإسراء ـ النمل ـ الكهف.

٣ ـ فى الفترة المكية الثالثة لم يرد ذكر اسم الرحمن، بينما توالت وتكررت قصص الأنبياء. وتنتمى إلى هذه الفترة السور التالية: سورة السجدة ـ فصلت ـ الجاثية ـ الأحقاف ـ الروم ـ هود ـ إبراهيم ـ يوسف ـ غافر ـ القصص ـ الزمر ـ العنكبوت ـ الشورى ـ يونس ـ سبأ ـ الملائكة ـ الأعراف ـ الأنعام ـ الرعد.

الحقبة الثانية الكبيرة هي الحقبة المدنية. حينها كان النبي يقود جماعة منظمة. ولهذا السبب كانت السور المدنية مليئة بالقواعد والتشريعات الصادرة باسم الله. ولقد جاءت هذه القواعد في أسلوب خالي من الزخرفة أو الصور المجازية وقل الاعتماد على القافية. وحلت عبارة «يا أيها المؤمنون» محل «يا أيها الناس». وكما كان تاريخ جماعة المسلمين أثناء إقامة محمد في المدينة خلفية لعديد من الآيات المدنية، مما يسهل علينا ترتيب السور والآيات زمنياً.

وتنتمي لهذه الحقبة الآيات: البقرة ـ البينة ـ التغابن ـ الجمعة ـ الأنفال ـ محمد ـ آل عمران ـ الصف ـ الحديد ـ النساء ـ الطلاق ـ الحشر ـ الأحزاب ـ المنافقون ـ النور ـ المجادلة ـ الحج ـ الفتح ـ التحريم ـ الممتحنة ـ النصر ـ الحجرات ـ التوبة ـ المائدة.

تستدعي منا هذه المحاولة التي قام بها نولدكه لترتيب السور القرانية زمنياً عدة ملاحظات:

أولاً: أن التقسيم الثلاثي للحقبة المكية قد اقترح قبل نولدكه من طرف جوستاف فايل Gustav Weil في كتاب: Historisch - Kritische Einleitung in dem Koran (1ere éd. 1844, 2eme éd. Bielefeld, 1878).

حيث اقترح «فايل» الترتيب الزمني الآتي:

(١) الفترة المكية الأولى، السور التالية: ٩٦ ـ ٧٤ ـ ٧٣ ـ ١٠٦ ـ ١١١ ـ ٣٣ ـ ٨١ ـ ٦٨ ـ ٨٧ ـ ٩٢ ـ ٨٩ ـ ٩٣ ـ ٩٤ ـ ١٠٣ ـ ١٠٠ ـ ١٠٨ ـ ١٠٢ ـ ١٠٧ ـ ١٠٩ ـ ١٠٥ ـ ١١٣ ـ ١١٤ ـ ١١٢ ـ ٨٠ ـ ٩٧ ـ ٩١ ـ ٨٥ ـ ٩٠ ـ ٩٥ ـ ١٠١ ـ ٧٥ ـ ١٠٤ ـ ٧٧ ـ ٨٦ ـ ٧٠ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٢ ـ ٨٤ ـ ٥٦ ـ ٨٨ ـ ٥٢ ـ ٦٩ ـ ٨٣ ـ ٩٩.

(ب) الفترة المكية الثانية: ١ ـ ٥١ ـ ٣٦ ـ ٥٠ ـ ٥٤ ـ ٤٤ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٣ ـ ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٧٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٤٣ ـ ٧١ ـ ٥٥ ـ ١٥ ـ ٧٦.

(جـ) الفترة المكية الثالثة: ٧ ـ ٧٢ ـ ٣٥ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ١٧ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ٦ ـ ٣١ ـ ٣٤ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٣٢ ـ ٤٢ ـ ٤٥ ـ ١٨ ـ ١٦ ـ ١٤ ـ ٤١ ـ ٣٠ ـ ٢٩ ـ ١٣ ـ ٦٤.

لو قارنا هذا الترتيب بالترتيب الذى قدمه نولدكه لوجدناهما مختلفين على عدة أصعدة:

١ ـ عدد السور فى كل فترة مكية:

(أ) الفترة الأولى: فايل : ٤٥ ـ نولدكه : ٤٨.

(ب) الفترة الثانية: فايل : ٢٠ ـ نولدكه : ٢١.

(جـ) الفترة الثالثة: فايل : ٢٦ ـ نولدكه : ٢٦.

المجمـــوع: فايل : ٩١ ـ نولدكه : ٩٥.

٢ ـ إضافة إلى أن الترتيب الزمنى للسور فى كل من هذه الفترات مختلف لدى كل منهما.

أما فيما يتعلق بالحقبة المدنية فإن فايل يقدم الترتيب التالى: ٢ ـ ٩٨ ـ ٦٢ ـ ٦٥ ـ ٢٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ٤٧ ـ ٥٧ ـ ٣ ـ ٥٩ ـ ٢٤ ـ ٦٣ ـ ٣٣ ـ ٤٨ ـ ١١٠ ـ ٦١ ـ ٦٠ ـ ٥٨ ـ ٤٩ ـ ٦٦ ـ ٩ ـ ٥.

حيث يصل مجموع السور المدنية لديه إلى ٢٣ سورة، بينما المجموع لدى نولدكه هو ٢٤ سورة، لأنه ضم إلى الحقبة المدنية السورة ٦٤، بينما وضعها فايل ضمن سور الفترة المكية الثالثة. لكن هذه السورة حسبت فى القائمتين القديمتين اللتين وضعهما ابن النديم وابن عبدالكافى ضمن السور المدنية.

الملاحظة الثانية على عمل نولدكه نوردها على لسان المستشرق ريتشارد بيل R. Bell (Introduction to the Qur'ân, p. 103. Edinburg 1953). الذى يقول: «لنا أن نشك فى مايقوله نولدكه، بشأن حصر استعمال الرحمن كاسم خلال الفترة المكية الثانية. من المحتمل أن هذا الاسم قد ذكر فى هذه الفترة لكن لاشىء يثبت أنه تم رفضه».

بالفعل، ليس هناك أى سبب يبرر مثل هذا الحذف خلال إقامة النبى فى مكة. لم يذكر فى القرآن أو فى السنة سبباً يكون قد دفع محمد إلى ذلك. ولايمكن الاعتماد على عدم ذكر اسم الرحمن فى عدد من السور لضمها إلى مجموعة منفصلة تمثل الفترة المكية الثالثة. ثم

ان اعتراض قريش على استخدام هذا الاسم يعود إلى صلح الحديبية (مارس ٦٢٨ ـ ذو القعدة من العام السادس للهجرة). حيث اعترضت قريش على عبارة البسملة بأكملها باعتبارها صفة مميزة للدين الإسلامى.

الملاحظة الثالثة تتعلق بلجوء نولدكه إلى الأسلوب اللغوى للآيات والاعتماد عليه فى ترتيبها زمنياً.

يمكن أن يساعدنا الاسلوب فعلاً على التمييز بين الحقبتين الكبيرتين لكنه لايسعفنا فى ترتيب السور خلال الفترات التى تندرج تحتها. فالحقبة المكية امتدت على اثنتى عشر سنة فقط (٦١٠ ـ ٦٢٢). فكيف يمكن إذن اللجوء إلى عامل الأسلوب فى فترة قصيرة كهذه. فهى غير كافية لبلورة اسلوب ما. ولايمكن إذن الاعتماد على هذا العامل لتقسيم الفترة المكية إلى ثلاث فترات صغيرة. وبالأحرى الاعتماد على المواضيع والظروف المحيطة أنذاك للتمييز بين السور.

٢ ـ هـ . جريم H. Grimme

جاءت محاولة جريم لترتيب سور القران بعد محاولة نولدكه فى كتاب «محمد» Mohammed (Munster, 1892 - 95). واعتمد جريم فى محاولته على فكرة تطور القضايا أو المواضيع الدينية: التوحيد، البعث، القيامة.. إلخ. حيث ركز اهتمامه على الحقبة المكية. وساير نولدكه فى ترتيبه للحقبة المكية، فقسمها إلى ثلاث فترات. لكن ترتيبه لهذه الفترات اختلف نوعاً من عن ترتيب نولدكه.

١ ـ فنجد أن جريم لايدرج فى الفترة المكية الأولى السور: ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٥ ـ ٥٦ ـ ١ ـ ٩٧ ـ ١٠٩ ـ ١١٢. فوضع السور ٥١ إلى ٥٦ فى الفترة المكية الثانية. والسور: ١ ـ ٩٧ ـ ١٠٩ ـ ١١٢ فى الفترة المكية الثالثة.

٢ ـ ويدرج السور ١٤ (فيما عدا السور ٣٨ ـ ٤٢ المدنية) و ١٥ ـ ٥٠ ـ ٥٤ ضمن الفترة المكية الثانية.

٣ ـ تنتمى السورة ٧٣ فى ترتيبه إلى الفترة المكية الأولى.

٤ - كل السور التى وضعها نولدكه فى الفترة المكية الثانية جعلها جريم تنتمى إلى الفترة المكية الثالثة.

٥ - لدى نولدكه ٩٠ سورة مكية و ٢٤ مدنية. أما لدى جريم فنجد ٩٢ سورة مكية و ٢٢ مدنية.

٦ - ويختلف الإثنان بشأن الآيات التى ضمت فيما بعد إلى نص السور.

٧ - كما أن الفترة المكية الثالثة قصيرة جداً لدى جريم الذى يرى أنها تقتصر خاصة على اقتراب يوم القيامة، وعلى العقاب الذى يسلط على الكفار.

٣ - المستشرق موير William Muir :

يوزع موير السور المكية فى الجزء الثانى من كتابه «حياة محمد» Life of Moham-et (p. 132 sqq., 318 - 320)، وأيضاً فى كتابه «القرآن: تكوينه وتعاليمه» The Coran: its composition and teaching (1896, pp 43 - 7) على خمسة مراحل:

١ - المرحلة الأولى ويعنى بها السور التى نزلت قبل تكليف محمد بالرسالة.

٢ - اقدم السور حتى الإعلان الأول عن رسالته.

٣ - من الإعلان الأول لرسالته إلى السنة السادسة من الرسالة (السنة ٦١٦ م).

٤ - من السنة العاشرة إلى الهجرة عام ٦٢٢.

ووضع ترتيباً زمنياً جاءت فيه ٩٣ سورة مكية و٢١ سورة مدنية.

● **الحقبة المكية:** ١٠٣ - ١٠٠ - ٩٩ - ٩١ - ١٠٦ - ١ - ١٠١ - ٩٥ - ١٠٢ - ١٠٤ - ٨٢ - ٩٢ - ١٠٥ - ٨٩ - ٩٠ - ٩٣ - ٩٤ - ١٠٨ - ٩٦ - ١١٢ - ٧٤ - ١١١ - ٨٧ - ٩٧ - ٨٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٤ - ٨٦ - ١١٠ - ٨٥ - ٨٣ - ٧٨ - ٧٧ - ٧٦ - ٧٥ - ٧٠ - ١٠٩ - ١٠٧ - ٥٥ - ٥٦ - ٦٧ - ٥٣ - ٣٢ - ٣٩ - ٧٣ - ٧٩ - ٥٤ - ٣٤ - ٣١ - ٦٩ - ٦٨ - ٤١ - ٧١ - ٥٢ - ٥٠ - ٤٥ - ٣٧ - ٣٠ - ٢٦ - ١٥ - ٥١ - ٤٦ - ٧٢ - ٣٥ - ٣٦ - ١٩ - ١٨ - ٢٧ - ٤٢ - ٤٠ - ٣٨ - ٢٥ - ٢٠ - ٤٣ - ١٢ - ١١ - ١٠ - ١٤ - ٤ - ٦٤ - ٢٨ - ٢٣ - ٢٢ - ٢١ - ٢٧ - ٢٦ - ١٣ - ٢٩ - ٧ - ١١٣ - ١١٤.

● الحقبة المدنية: ٢ ـ ٤٧ ـ ٥٧ ـ ٨ ـ ٥٨ ـ ٦٥ ـ ٩٨ ـ ٦٢ ـ ٦٩ ـ ٢٤ ـ ٦٣ ـ ٤٨ ـ ٦١ ـ ٤ ـ ٣ ـ ٥ ـ ٣٣ ـ ٦٠ ـ ٦٦ ـ ٤٩ ـ ٩.

هناك بعض الاختلاف بين ترتيب موير والترتيب الذى اقترحه نولدكه أهمها:

١ ـ يدخل موير سبع سور من التى يضعها نولدكه فى الفترة المكية الأولى فى المرحلة الرابعة.

٢ ـ ثمانى سور من الفترة المكية الثانية أصبحت تنتمى لدى موير إلى المرحلة الخامسة.

بتقسيمه الحقبة المكية إلى خمسة مراحل بدلاً من ثلاث فترات زاد موير المسألة تعقيداً مما صعّب ترتيب السور زمنياً.

والخطأ الأساسى الذى وقع فيه موير كما لاحظه نولدكه ـ شفالى (Geschichte des Qorans, 1, p 73. Leipzig 1909). هو أنه إدعى تحديد وضبط الترتيب الزمنى للسور فى كل مرحلة من المراحل الخمسة ومعترفاً فى نفس الوقت أنه لم ينجح كلية فى هذه المهمة. وعلى العكس من هذا وجدنا أن نولدكه قد اعترف منذ البداية أن الترتيب الذى يقترحه تقريبى.

٤ ـ ريجيس بلاشير Régis Blachère:

يعتمد ريجيس بلاشير فى ترجمته للقران (Paris 1949, 1951) نفس ترتيب نولدكه ـ شفالى ـ فيما عدا بعض الاختلافات الطفيفة.

١ ـ حيث يضع بلاشير السورة ٥١ و٦٨ فى بداية الفترة المكية الثانية، بينما وضعها نولدكه فى آخر الفترة المكية الأولى. كما يضع السورة ٧٦ فى الفترة المكية الأولى.

٢ ـ يدرج بلاشير السورة ١٧ فى الفترة المكية الثالثة بينما يدرجها نولدكه ـ شفالى فى الفترة الثانية.

٣ ـ ويختلف تتابع السور فى الفترة المكية الأولى لدى بلاشير عنه لدى المستشرقين الألمانيين.

ويفسر بلاشير هذا الاختلاف قائلاً إنه فضل جمع السور التى تتشابه من حيث الموضوع فى مجموعات ثم ترتيب هذه المجموعات على التوالى مما يتجانس أكثر، حسب اعتقاده مع الدعوة وهى فى بدايتها (القرآن، المجلد الثانى، باريس ١٩٤٦، ص ٦). (Le Coran, II, p 6. Paris, 1949). وأدت هذه الاعتباطية التى اتبعها بلاشير إلى وقوعه فى خطأ تقسيم بعض السور إلى أجزاء ذات تواريخ مختلفة. وخطاه يكمن خاصة فى عدم تقديم أى تبرير علمى أو تاريخى لهذه المبادرة.

ووصل عدد السور القرآنية لديه بسبب هذه التجزئة الاعتباطية إلى ١١٦ سورة بدلاً من ١١٤ سورة. وهو الرقم المتعارف عليه لدى المسلمين وكذلك لدى المستشرقين غير المسلمين!!

هذا الرقم الذى توصل إليه بلاشير جاء من حيث أن جزء كلاً من السورتين ٩٦ و٧٤ إلى نَصين.

(أ) قسم السورة ٩٦ من الآية ١ إلى ٥ وجعلها فى أول الترتيب ثم وضع الآية من ٦ إلى ١٩ فى نَص على حدة وجعل منه السورة ٣٢.

(ب) أما السورة ٧٤ فأصبحت عنده تحمل رقم ٢ ابتداء من آيتها ١ إلى ٧. أما من الآية ٨ إلى ٥٥ فكوّن سورة أخرى أعطاها رقم ٣٦.

٥ - ريتشارد بيل Richard Bell:

تعرض المستشرق ريتشارد بيل لمسألة الترتيب الزمنى للقرآن فى الفصل السادس من كتابه «المدخل إلى القرآن» (Introduction to the Qur'ân (Edinburg, 1953.

حيث يبدأ باستعراض محاولات نولدكه معتبراً إياها أكثر المحاولات قبولاً ثم محاولة وليام مويير وجريم وهيرشفيلد وبلاشير وينتهى معترفاً أن التوصل إلى ترتيب شامل لسور القرآن ترتيباً زمنياً أمر يصعب التوصل إليه. واقترح أن أفضل وسيلة يمكن اتباعها هى وضع مبادىء عامة يتم من خلالها الترتيب. فتعرض للمبادىء التالية:

١ ـ فى غياب مرجع تاريخى محدد يبقى «الأسلوب» هو المعيار الأدق للتوصل إلى تاريخ تقريبى للسورة. لكن بيل يتراجع عن طرحه هذا معترفاً بصعوبة استخدام معيار الأسلوب.

٢ ـ ونراه يلجأ بعد هذا إلى معيار اخر هو: تركيب الجمل. وهنا تراجع أيضاً قائلاً إن هناك مصادفات من شأنها ان توقعنا فى الخطأ.

لكنه مع هذا يعترض على ترتيب السور ٩٦ (الآية ١ ـ ٥) و٧٤ التى أجمع العلماء المسلمين وكذا المستشرقين على انها اول وثانى سور الوحى. ويبرر اعتراضه قائلاً إن طريقة نزولها تتطابق اكثر مع المرحلة اللاحقة من رسالة محمد، إذ لم يكن لهذا الأخير فى بداية رسالته أى تصور عن الملائكة!

هذا طبعاً رأى خاطىء. لأن العرب فى جاهليتهم كانوا يعرفون الملائكة فى ديانتهم كما أنهم باحتكاكهم مع اليهود والمسيحيين الموجودين فى مكة استطاعوا ان يكوّنوا فكرة عن الموضوع. كيف يُتصور إذن ان محمد لم تكن له أدنى فكرة عن الملائكة؟!

ولم يكتف بيل بهذا القدر من المهاترات بل زاد الطين بلة حين ادعى أن:

(أ) كلمة «نبى» هى فى حقيقة الأمر كلمة مدنية.

(ب) وأن إبراهيم لم يصبح نبياً إلا فى المدينة!

(جـ) أن كلمة إسلام ومسلم والاستعمال الدينى للفعل أسلم ينتمى إلى الحقبة المدنية.

فكل هذه الإدعاءات خاطئة. فكلمة نبى وردت فى السور المكية: ٦ ـ ٧ ـ ٢٥ ـ ٤٣ ـ ١٩ ـ ٣٠ ـ ٧. أما إبراهيم فقد ورد ذكر اسمه كنبى فى السور المكية الآتية: ٦ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٩ ـ ٢١ ـ ٢٦ ـ ٢٩ ـ ٣٨ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٥١ ـ ٥٣ ـ ٨٧. وقد وردت كلمة إسلام ـ مسلم ـ مسلمون فى ٢١ سورة مكية. فلو اتبعنا منطق بيل لحذفنا من الحقبة المكية ٤٤ سورة وألحقناها بالحقبة المكية. وهذا غير معقول بإجماع كل الباحثين.

الخلاصـــة:

لقد كانت هذه مجمل المحاولات التى قام بها المسلمون وكذلك المستشرقون[1] لترتيب القران ترتيباً زمنياً. كل هذه المحاولات باءت بالفشل. ولقد كان الكُتّاب المسلمون اكثر حذراً لانهم اكتفوا بتقسيم ثنائى: سور مكية وسور مدنية. ومع هذا يجب القول ان تتابع السور حسبما جاء فى قوائمهم يظل افتراضياً طالما لم يدعم تاريخياً.

نحن نعتقد - واعتقادنا تؤكده عدة روايات[2] - ان القران قد جمع فى جزء واحد بينما محمد على قيد الحياة. هذا الراى يستند على العوامل التالية:

١ - من المعروف من خلال السيرة والتفاسير القرانية ان ايات مدنية قد ادرجت فى سور مكية سبقتها.

وهذا يعنى انه قد وجدت نصوص من السور التى تم جمعها ثم ادخلت عليها فيما بعد ايات نزلت فى المدينة. هذه الآيات كـانت تكمل او تعـدل بعض الأفكار الواردة فى سـور سابقة.

والمثل على ذلك هو سورة الشـعراء المكية التى اضيفت عليها فى نهايتهـا الآية رقم ٢٢٧ المدنية. ولقد تمت هذه الإضـافة لاستثناء الشـعراء المسلمين الذين كانوا يدافعون عن الرسـول كحسـان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكـعب بن مـالك من الإدانة التى وردت فى السـورة المعنية. (انظر الطبرى: التفسـير. والسيوطى: اسباب النزول). وتشير الطبـعة المصرية للقران فى اول السـور المكية إلى الآيات المدنية التى اضـيفت إليها. (انظر اعلاه، ص ١٢٢ - ١٢٣). كما يعطى الزركشى (البرهان، ١، ص ١٩٩ - ٢٦٣) رصداً كامـلاً لهذه الآيات التى اضيفت على سور سبقتها.

٢ - ربما نسخ القران الذى جمعت نصوصه فى حياة محمد على رقوق. والقران نفسه يتحدث عن **﴿كتاب مسطور فى رقّ منشور﴾** (سورة الطور: الآية ٢ - ٣).

كما جاء ذكر الرقّ عدة مرات فى قصائد شعراء الجاهلية. ويروى أن المعلقات السبع

---

(١) انظر Bell (Introduction...) pp 110-113 حيث وضع جدولاً مقارناً جمع فيه كل هذه المحاولات.

(٢) انظر الزركشى: البرهان، الجزء ١، ص ٢٥٦، ١، ١٥، القاهرة ١٩٥٧.

(او الشعر) قد كتبت على رق وعلقت على الجدران الخارجية للكعبة. كل هذا يثبت إذن أن استعمال الرق كان منتشراً فى مكة وفى المدينة.

يمكن أن يعارض البعض هذا الراى مستندين إلى الرواية التى تقول إن زيد بن ثابت قد نسخ القران على «أجزاء من الورق وعلى الحجارة وعلى ورق النخيل وعظام كتف الإبل، وعلى اشلاء من الجلود»، فاقول إن هذا يتعلق بالوثائق التى تم على أساسها جمع النص النهائى حتى لايطويه النسيان.

أما بمشان التقسيم الثلاثى للحقبة المكية يجب أن نشير أن فايل ثم نولدكه لم يكونوا من السباقين لوضعها. إذ اقترحها قبلهم كُتّاب مسلمون قدامى. فيقول أبو القاسم الحسن ابن محمد بن حبيب النيسابورى فى كتابه «التنبيه على فضل علوم القران»: إن علم التنزيل هو من أرقى علوم القران ومنه أماكن التنزيل والترتيب الزمنى للوحى فى مكة: ابتداء ووسطاً وانتهاءً، والترتيب الزمنى للوحى فى المدينة. (ذكره الزركشى: البرهان فى علوم القران، ١، ص ١٩٢، القاهرة ١٩٥٧، طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم). فالأسبقية للتقسيم الثلاثى لسور الحقبة المكية تعود إلى النيسابورى وليس إلى فايل ونولدكه.

لكن ا بو القاسم الحسن النيسابورى، او الزركشى الذى يذكره فى الفترة التى تلى، لايميز بين الفترات المكية الثلاثة التى اشار إليها. إذ جاء تعداده للترتيب الزمنى للسور المكية على النحو الآتى:

اول سورة نزلت فى مكة هى ﴿اقرا باسم ربك﴾ (رقم ٩٦)، ثم سورة **﴿نون والقلم﴾** (رقم ٦٨)، ثم ﴿يا ايها المزمل﴾ (رقم ٧٣)... ثم يرتب ٨٥ سورة مكية. وبعدها يقوم بتعداد وترتيب ٢٩ سورة مدنية وعلى راسها سورة البقرة. وهذا الترتيب الذى يقترحه متطابق تماماً مع ترتيب عمر بن محمد بن عبدالكافى المذكور أعلاه (ص ١٢١).

المستشرقون أمثال فايل ونولدكه والآخرين من بعدهم لم يبتكروا شيئاً باقتراح الفترات المكية الثلاثة.

واخيراً نكتشف انه من الأفضل التحلى بالحكمة وبالتروى والتواضع عند تناول مثل هذه المسالة. وافضل درس يمكن استخلاصه هو ذلك الذى يعطينا إياه الزركشى (الجزء الاول، ص ١٩٢). ومفاده انه من الجائز ان يعطى المرء رايه بشأن بعض سور القران: هل هى مكية أم هى مدنية؟ وأن يقدم تحليله ويستعرض افكاره حول هذا الموضوع.

الفصل الحادى عشر

مشكلة الألفاظ غير العربية فى القرآن

لقد اثيرت مسألة الالفاظ غير العربية فى القران منذ القرن الاول الهجرى (السابع الميلادى) حيث دخل الفقهاء المسلمون فى مجادلات واسعة بين مؤيد ومعارض:

(أ) لابد أن نذكر من بين المعارضين الشافعى (المتوفى فى ٢٠٤هـ/٨٢٠م) مؤسس المذهب الشافعى، وابو عبيدة (المتوفى فى ٢١٠هـ/٨٢٥م) عالم فقه اللغة، ومحمد بن جرير الطبرى (المتوفى عام ٣١٠هـ/٩٢٣م) المؤرخ الكبير واشهر مفسرى القران، وابو بكر بن الطيب الباقلانى (المتوفى عام ٤٠٣هـ/١٠١٤م) الفقيه الأشعرى، وابو الحسين بن فارس (المتوفى عام ٣٩٥هـ/١٠٠٥م) عالم فقه اللغة.

كل هؤلاء يعارضون بشدة الفكرة القائلة بان القران يحتوى على الفاظ اجنبية. ويؤسسون رفضهم على نص الآية ٢ من سورة يوسف **﴿إنا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾** وكذلك على نص الآية ٤٤ من سورة فصلت **﴿ولو جعلناه قرآنا اعجمياً لقالوا لولا فُصلت اياته اعجمى وعربى...﴾**. ويضيف هؤلاء العلماء والفقهاء انه لو رأى العرب فى القران لغة غير مألوفة لديهم لتذرعوا بعدم معرفتهم وفهمهم للغته.

(ب) ونذكر من بين القائلين بوجود الفاظ غير عربية فى القران عبدالله بن عباس (المتوفى عام ٦٨هـ/٦٦٨م) وتلميذه عكرمة (المتوفى عام ١٠٥هـ/٧٢٣-٤م)، وابو موسى الأشعرى (المتوفى عام ٤٢هـ/٦٦٢م). ووضع هؤلاء قوائم للالفاظ غير العربية. فوجد المعارضون انفسهم امام امر واقع وهو ان هذه الالفاظ القرانية توجد ايضاً فى لغات اجنبية. لكنهم لم يلبثوا ان فسروا هذه المصادفة قائلين على غرار الطبرى ان هذه الالفاظ المستعملة فى لغات اخرى تعود إلى ان مختلف اللغات قد تشير إلى نفس المسمى وأن هذه الالفاظ المنتمية للغات اخرى ماهى إلا نتاج المصادفة البحتة التى تجعل عدة لغات تستخدم الفاظاً متشابهة للإشارة إلى مسمى واحد. فيحدث ان يستعمل العرب والفرس والاحباش

نفس المصطلح لتعيين شيء واحد. (نكر في الزركشي: البرهان، الجزء الأول، ص ٢٨٩، القاهرة ١٩٥٧). وقد اتبع أبو عبيدة نفس الرأى كما جاء على لسان ابن فارس (نكر في الزركشي، نفس المرجع، ١، ص ٢٨٩).

ويعترض ابن عطية (المتوفى عام ٥٤٦هـ/١١٥١م) في مقدمة كتابه «حول تفسير القرآن»[1] (ص٢٧٧) على رأى الطبرى قائلاً أن التفسير القائل بأن اللغتين توافقتا كلمة كلمة تفسير بعيد عن الحقيقة. ففي الواقع تكون واحدة مصدراً وأصلاً أما الثانية فاشتقاقاً في أغلب الأحيان. ليس الغرض هنا تفنيد احتمال المصادفة كلية، لكن القول بأنها لايمكن أن تحدث إلا في حالات نادرة واستثنائية (نكر في الزركشي، نفس المرجع، ١، ص ٢٩٠).

وقد جمع أبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفى عام ٢٢٤هـ/٨٣٩م) بين هذين الرأيين المتعارضين قائلاً إن الرأى الصحيح هو القبول بالرأيين. فهذه الألفاظ المتشابهة بين القرآن واللغات الأجنبية هي في حقيقة الأمر ألفاظ أجنبية كما يقول الفقهاء. لكنها وصلت إلى العرب الذين عربوها وهضموها في لغتهم حتى أصبحت ألفاظاً عربية. وعندما نزل القرآن كانت هذه الألفاظ قد دخلت في لغة العرب. واستناداً على هذا فإن من يقول إن هذه الألفاظ عربية محق. ومن يقول إنها أعجمية فهو كذلك محق. (ذكر في الزركشي، نفس المرجع، ١، ص ٢٩٠).

أما ابن فارس الذى نكر رأى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «الصاحبي» (ص٢٩) فينحاز لهذا الحل الوسط.

ويبقى أن تفسير ابن عطية هو أكثر التفاسير عبقرية. إذ يقول في مقدمة كتابه «حول تفسير القرآن» (ص ٢٧٧): إنه يمكن تفسير هذا التطابق من حيث أن العرب العاربة الذين نزل القرآن بلغتهم قد احتكوا نوعاً ما بلغات أخرى بفعل التجارة ورحلات الصيف والشتاء القرشية. وكذلك بفعل الأسفار، مثل سفر أبى عمر لسوريا وسفر عمر بن الخطاب، وسفر عمرو بن العاص وعميرة بن الوليد للحبشة وسفر الأعشى للحيرة واختلاطه بالمسيحيين

(١) الجامع المحرر... الوجيز في تفسير القرآن العزيز (v. GAL, 412).

هناك. وبسبب كل هذه العوامل استعار العرب ألفاظاً أجنبية وغيروا بعضها بحذف بعض أحرفها لتخفيف نطقها. كما استعملوها فى أشعارهم وحواراتهم حتى اكتسبت هذه الألفاظ طابعاً عربياً صافياً ودخلت فى نسيج اللغة العربية. وفى هذه الحال استخدمها القرآن أيضاً. فالحقيقة كما يقول ابن عطية هى أن هذه الألفاظ أعجمية فى الأصل عرّبها واستخدمها العرب. وبالتالى فهى عربية. (ذكر فى الزركشى، نفس المرجع، ١، ص ٢٨٩).

إنه حل وسط ومقبول فوق ذلك.

● قائمة الزركشى (المتوفى عام ٧٨٤هـ/١٣٩١م):

نعرض فيما يلى قائمة الزركشى التى قدمها فى كتابه «البرهان» (الجزء الأول، ص ٩ ـ ٢٨٨) دون ترتيب. ونحن نرتبها هنا وفقاً لانتماء الألفاظ لكل لغة.

١ ـ من اللغة اليونانية:

(أ) طفق = يفعل الشىء.

(ب) قسط وقسطاس = العدل.

(جـ) رقيم = المائدة.

(د) سرىً = النهر الصغير.

٢ ـ من اللغة الفارسية:

(أ) استبرق = بالفارسية استبره = القماش الغليظ.

(ب) سجل = الكتاب، الدفتر.

٣ ـ من العبرية:

(أ) هدنا = توبنا.

(ب) طاها = ضع رجلك يارجل!

(جـ) اليم = موجع.

٤ ـ من السريانية:

طور = الجبل.

٥ ـ من النبطية:

سينين = الجميل، الطيب.

٦ ـ من الأمهرية:

(أ) ناشئة = القيام أثناء الليل.

(ب) كفلين = مرتين.

(جـ) قسورة = الأسد.

(د) مشكاة.

(هـ) درىّ.

٧ ـ من الهندية:

(أ) سندس.

(ب) الآخرة.

(جـ) ورائهم.

(د) يمّ.

(هـ) بطائنها.

٨ ـ من لغة المغرب:

(أ) مُهل.

(ب) يشار.

(جـ) إنـا.

(د) اب.

المجموع ٢٥ لفظاً غير عربى.

إن هذه القائمة تثير عدة تساؤلات أهمها:

أولاً: ما المقصود بلغة المغرب؟ في خضم دراسته لكلمة «محل» أشار السيوطي (الإتقان، ص ٣٢٥، كالكوتا، ٤ - ١٩٥٢، الجزء الأول، ص ١٤٠) القاهرة ١٩٣٥) إلى أن لغة المغرب هي لغة البربر. ويذكر في موضع آخر (ص ٣٢٢، كالكوتا، ص ١٣٩، القاهرة) إنها لسان أهل أفريقيا. لكن آرثر جيفري «الكلمات الأجنبية في القرآن» The foreign vocabulary of the Qur'ân, p. 31, Baroda, 1938)، فيعتقد أنه من الداعي للسخرية التفكير في أن اللغة العربية في عهد الجاهلية أو أثناء الوحي قد تأثرت بأي عنصر من عناصر اللغة البربرية... كل ما في الأمر أن مثل هذه الألفاظ ظلت بالنسبة لعلماء المسلمين آنذاك لغزاً. ولم تكن عبارات لسان المغرب أو لغة البربر إلا ستار يخفون وراءه عجزهم.

ثانياً: لماذا وضع ابن عباس وعكرمة وأبو موسى الأشعري قوائم للألفاظ غير العربية وهم لايتقنون اللغات الأجنبية التي يرجعون إليها هذه الألفاظ؟ هل استشاروا من هو على دراية بهذه اللغات؟ ويبدو أن الجواب هو نعم. لأن تفسير المعاني الذي يعطونه صحيح. مثلما هو الحال بالنسبة للفظ قسط وقسطاس. فقسطاس لفظ مشتق من الكلمة اليونانية dikastès ومعناها القاضي مثلما يقترحه فولر (Vollers in ZDMG, 1, 633) أما مينجانا Mingana (Syriac influence on the style of the Kur'ân, in Rylands Bulletin, 1927)، فيقترح أن هذا اللفظ مشتق من الكلمة اليونانية xetès (المستعار من اللفظ اللاتيني sextarius) حيث تدل على وحدة وزن.

لكن الغريب في الأمر أن الألفاظ الثلاثة التالية التي افترض فيها انتمائها للغة اليونانية لم يعثر على مصدر اشتقاقها. هذا لأن الألفاظ الثلاثة: طفق، رقيم، سريّ لاتحمل طابعاً أجنبياً بل أن لها أوزاناً عربية صافية. فما الذين دفع هؤلاء العلماء إلى رصدها من بين الألفاظ الأجنبية؟!

هل يكون السياق التاريخي لقصة أهل الكهف التي عرف أنها حدثت في بلاد الروم هو الذي جعل العلماء يفكرون في أن لفظ «رقيم» أجنبي؟

لكن لايوجد فى المقابل اى تبرير بالنسبة للفظين طفق وسرىً. فالاول يرجع إلى قصة آدم وحواء بعد الخطيئة، اما الثانى فمرتبط بقصة مريم وهى على وشك أن تضع المسيح.

ثالثاً: لماذا نسى هؤلاء العلماء الإشارة إلى الفاظ تحمل الطابع الاجنبى مثل الكلمات ذات الأصل اليونانى:

دينار (سورة ٣، ٦٨) = Dênarion.

درهم (١٢، ٢٠) = Drakhmé.

قنطار (٣، ١٢، ٦٨ ـ ٤، ٢٤) = Kentênarion.

إبليس (٢، ٣٢ ـ ٧، ١٠ ـ ١٥، ٣١، ٣٢ إلخ) = Diabolos.

سيما (٢، ٢٧٤ ـ ٧، ٤٤، ٤٦ ـ ٤٧، ٣٢ ـ ٤٨، ٢٩، ٥٥، ٤١) = Sèma.

صراط (٤٥ مرة فى القرآن) = Strata.

قرطاس (٦، ٧، ٩١) = Khartès.

رابعاً: لماذا لم يثبت من يعارضون وجود الفاظ أجنبية فى القرآن أن الألفاظ المعنية عربية وأنها لم تشتق من اليونانية او غيرها.

ولماذا لم يلجا هؤلاء إلى المترجمين الذين اتقنوا اليونانية والسريانية ابتداءً من نهاية القرن الثانى من الهجرة للاستعانة بهم؟

اما فيما يتعلق بالألفاظ التى وردت فى المجموعة (ب) إلى (د) فإننا نلاحظ أن:

١ ـ فى المجموعة (ب) الاشتقاق صحيح.

٢ ـ فى المجموعة (ت) الاشتقاق خاطىء بالنسبة للألفاظ الثلاثة.

٣ ـ فى المجموعة (ث) اشتقاق كلمة طور صحيح.

٤ ـ فى المجموعة (ج) اشتقاق كلمة «سينين» غير صحيح، إذ يبدو أن هذه الكلمة التى وردت فى السورة (٩٥، ٢) ماهى إلا تحريف لكلمة «سينى» استوجبه الوزن.

٥ ـ فى المجموعة (ح) نجد أن اشتقاق كلمة «مشكاة» صحيح، بينما اشتقاق الكلمات الاخرى خاطىء. (انظر Jeffrey: The foreign..., p 32, 266).

٦ ـ فى المجموعة (خ) هناك عدة اراء بالنسبة لكلمة «سندس»، إذ يرى فرايتاج (Freytag, lexicon) وبفوراك (Dvorak, Femduorter, 72) انها كلمة فارسية. بينما يقارنها فرانكل (Fraenkel, Fremdworter, 4) بالكلمة اليونانية Sindôm (رداء يرتدى خلال طقوس تمجيد الإله ديونيزوس Dionysos).

٧ ـ بالنسبة للمجموعة (د) المنسوبة إلى القبطية فإننا نلاحظ أن نسبة الألفاظ (١) و(٢) و(٤) إليها مدعاة للسخرية. أما كلمة (يَّ) فهى موجودة فى اللغة المصرية واللغة القبطية (انظر Jeffrey, p 293).

٨ ـ وليس لنا اى تعليق بشأن المجموعة (ذ) الخاصة بالألفاظ المنحدرة من لغة المغرب اى البربرية.

● قائمة السيوطى (المتوفى ٩١١هـ/١٥٠٥م):

أباريق: بالفارسية.

أبّ: عشب، بلغة المغرب.

ابلعى: يبلع بالأمهرية.

اخلد: يستريح، بالعبرية.

ارائك: سرائر، بلغة إبراهيم.

آنر: مخطىء! بلغة إبرهيم.

أسباط: قبائل، بالعبرية.

استبرق: رداء، خشن بالفارسية.

اسفار: كتب، بالسريانية.

إصرى: وصيتى، بالنبطية.

اكواب: ج كوب، بالنبطية.

إل: اسم الله، بالنبطية.

اليم: موجع، بلغة الزنوج (حسب الجوزى) وباللغة العبرية (حسب شينله).

إناه: الطهو، باللغة البربرية.

أواه: مقتنع، بالأمهرية (وفقاً لابن العباس)، و(رحيم) بالأمهرية (وفقاً لعمرو بن شرحبيل) و(الذين يصلى كثيراً) بالعبرية (وفقاً للواسطى).

أوّاب: الذى يتعبد بسبحة، بالأمهرية.

الأولى والآخرة: بالقبطية.

بطائنها: خارجى، بالقبطية.

بعير: بعير، بالعبرية.

البيعة والكنيسة: كنيسة ومعبد يهودى، بالفارسية.

تنور: موقد، بالفارسية.

تبير: بالنبطية.

تحت: ومعناه فى الآية الخاصة بمريم ﴿فناداها من تحتها﴾، ومعناها: البطن، بالنبطية.

الجبت: اسم الشيطان، بالأمهرية.

جهنم: بالفارسية، والأمهرية.

حرم: إجبارى، بالأمهرية.

حصب: حطب جهنم، بلغة الزنوج.

حطة: (قولوا) ماهو صحيح، التحدث بدقة، بالعبرية.

حواريون: المبيضون، بالنبطية.

حوب: الخطيئة، بالأمهرية.

دارست: يدرس، بالعبرية.

درئ: مضيىء، بالأمهرية.

دينار: بالفارسية.

راعنا: شتيمة، بالعبرية.

ربانيون: الحاخامات، بالسريانية والعبرية.

ربيّون: ألف، بالسريانية.

الرحمن: بالعبرية رخمن، وفقاً للمبرد والثعلب.

الرّس: البئر، بالأعجمية (الفارسية؟).

الرقيم: باليونانية: الحبل (شينله).

رمزاً: بتحريك الشفتين، بالعبرية.

رهوا: هادىء، بالنبطية أو السريانية.

الروم:

زنجبيل: بالفارسية.

السجل: الرجل، بالأمهرية (وفقاً لابن عباس)، والكتاب (وفقاً لابن جنّى)، وهناك من يقول إنها كلمة فارسية.

سجيل: كلمة فارسية مكونة من كلمتين: حجر وطين. ويقول أبو حاتم (كتاب: الزناة) إنها كلمة اعجمية.

سرداق: بالفارسية: سابرده ومعناها ستائر المنزل.

سريًا: نهر، بالسريانية أو النبطية أو كما يذكر شينله يونانية.

سَفرة: قراء، بالنبطية.

سقر: جهنم، بالفارسية.

سُجداً: برءوس مغطاة، بالسريانية.

شكرا: الخل، بالأمهرية.

سلسبيل: ويقول الجواليقى إنها كلمة أعجمية.

سنا: ذكرها ابن حجر ولم يشر إليها كُتّاب آخرون.

سندس: الديباج الرقيق، بالفارسية وفقاً للجوالقى، بينما يقول شينله إنها كلمة هندية.

سيّدها: زوجها، بالقبطية.

سينين: جميل، طيب، بالنبطية.

سناء: جميل، طيب، بالنبطية.

شطر: (في شطر المسجد)، في اتجاه.. بالأمهرية.

شهر: شهر، بالسريانية.

الصراط: الطريق، الدرب، باليونانية.

صُرّهُن: يقطع إرباً، بالنبطية.

صلوات: معابد اليهود، بالعبرية.

صــه: أيها الرجل، بالنبطية أو الأمهرية.

طفقا: شرعوا فى، باليونانية (وفقاً لشينله).

طوبى: اسم الجنة، بالأمهرية.

طور: جبل، بالسريانية أو النبطية.

طوى: أثناء الليل، أو هو اسم رجل بالعبرية.

عبدت: (جاءت فى عبدت بنى إسرائيل): قتلوا، بالنبطية.

عدن: (جنات عدن): حدائق كروم، بالسريانية أو باليونانية (كما جاء فى تفسير جويبر).

العرم: النهر، بالأمهرية.

غساق: بارد ومتجمد، بالتركية.

فردوس: حديقة، باليونانية أو حقل كروم، بالنبطية.

فوم: قمح، بالعبرية.

قراطيس: ويعتبرها الجواليقى كلمة غير عربية.

قسط: العدل، باليونانية.

قسطاس: عدل أو ميزان، باليونانية.

قسورة: الأسد، بالأمهرية، كما جاء عند ابن العباس.

قطنا: كتابنا، بالنبطية.

قفل: قفل، بالفارسية.

قُمَّل: قَمَل، بالعبرية.

قنطار: ويشير الثعالبى (فقه اللغة) أنها كلمة يونانية معناها: ميزان من ١٢ الف أوقية. وعن ابن قتيبة هو ميزان مقداره ١٨ الف مثقال بلغة أهل افريقيا.

القيوم: الذى لاينام، بالسريانية.

كافور: كافور، بالفارسية.

كفّر عنا: إمحى لنا، بالنبطية أو العبرية.

كفلين: مرتين، بالأمهرية.

كنز: كنز، بالفارسية.

كوّرت: يغطس فى، بالفارسية.

لينة: نخلة، بلغة يهود يثرب.

مجوس: يقول الجواليقى إنها كلمة غير عربية.

مرجان: يقول الجواليقى إنها كلمة غير عربية

مسك: مسك، بالفارسية.

مشكاة: مشكاة، بالأمهرية.

مقاليد: مقاليد مفاتيح، بالفارسية.

مرقوم: مكتوب، بالعبرية.

مزجاة: كمية قليلة أو (قيمة قليلة) بالفارسية أو النبطية.

ملكوت: بالنبطية Malkûtâ.

مناص: مفر، بالنبطية.

منساة: عصا، بالأمهرية.

مهل: ثقل الزيت، بالبربرية.

ناشئة: سهر الليل، بالأمهرية.

ن: بالفارسية ـ أنون: إفعل ماتشاء.

هُدنا: تبنا، بالعبرية.

هود: يهود، كلمة غير عربية.

هون: (يمشون على): حكماء، بالسريانية أو العبرية.

هيْت لك: تعالى!، بالقبطية، أو السريانية او الحرانية، او العبرية.

وراء: أمام، بالنبطية.

وردة: يقول الجواليقى إنها كلمة غير عربية.

وَزَر: حبل، ملجأ، بالنبطية.

ياقوت: كلمة فارسية.

يحور: (ظن أن لن يحور) يعود، بالأمهرية.

يس: أيها الرجل، بالأمهرية.

يصدون: كلمة أمهرية.

يصهر: يطهى جيداً، بلغة المغرب او بالقبطية كما يقول شينله.

اليمّ: كلمة سريانية (ابن قتيبة)، عبرية (ابن الجوزى)، قبطية (شينله).

اليهود: كلمة غير عربية عربت وأصلها عبرى.

المجموع: ١١٨ كلمة غير عربية.

يتباهى السيوطى بكونه جمع هذا العدد الهائل من الكلمات غير العربية الموجودة فى القران.

ويقول بعد ذلك إن «القاضى تاج الدين بن السبكى» قد ألّف ابياتاً شعرية من ٢٧ لفظاً من هذه الألفاظ ثم اكملها ابن حجر بقصيدة أخرى احتوت على ٢٤ لفظاً إضافياً. واخيراً ألّف السيوطى قصيدة أخرى وضع فيها الألفاظ المتبقية اى حوالى ٦٠ لفظا. ويستشهد السيوطى بهذه القصائد الثلاثة فى كتاب (الإتقان، الجزء الأول، ص ١٤٠ ـ ١٤١، القاهرة، ١٩٣٥). وهى بنفس الوزن وبنفس القافية.

كما يشير السيوطى إلى انه ألّف كتاباً خصصه لهذه المسألة بعنوان «المهذب فى ماوقع فى القران من المعرب».

●● اقتراحاتنا:

لقد بذل هؤلاء الكُتّاب جهوداً معتبرة لتفسير اشتقاق عدد كبير من هذه الألفاظ الأجنبية التى احتواها القران. ونجدهم أحياناً يقترحون عدة اشتقاقات لكلمة واحدة.

ونقترح عليكم الآن تصحيحاً لبعض التخمينات التى قاموا بها وتكملة لقوائمهم.

لقد اكتشفنا مصدراً آخر تناسوه تماماً الا وهو اللغة اللاتينية. فقد كان للروم حضوراً فى الجزيرة العربية خلال السبع قرون التى سبقت ظهور الإسلام. وإن كانت اليونانية منتشرة بشكل واسع بين شعوب هذه المنطقة فإنه لايمكن إنكار ان اللغة الرومانية كانت متواجدة بقدر جعلها تدخل فى نسيج اللغة المحلية.

وعلينا ان نشير هنا ان كلمة (رومية) تدل على اليونانية واللاتينية على حد سواء.

ولهذا يتعين علينا البحث فى هاتين اللغتين كلما ذكر الزركشى او السيوطى فى قوائمهما ان اصل اللفظ رومى. وتوصلنا باتباع هذا المنهج إلى النتائج التالية:

١ ـ قسط، قسطاس:

نعتقد ان هذين اللفظين، وهما فى الحقيقة لفظ واحد، ليسا من أصل يونانى ولم يشتقا من كلمة (dikastês = قاضى) كما اقترح ذلك فولر (Vollers in ZDMG, 1, 633)

ولا من كلمة extês اليونانية كذلك (وهى مكيال رومانى) مثلما اقترحه مينجانا (Mingana). حيث أكد مفسرو القرآن وجاء فى القائمتين أن كلمة قسطاً أو قسطاس تعنى بالرومية: العدالة. فلا كلمة dikastês = قاضى ولا كلمة xestês = مكيال تؤدى إلى هذا المعنى.

لهذا نقترح أن أصل هذين اللفظين القرآنيين يعود إلى الكلمة اللاتينية Justus أو Jus-titia (العادل، عدالة). فهذه الكلمة تنطبق تماماً مع اللفظين القرآنيين خاصة لو نطقنا القاف كالف مثل ماهو جارى عليه فى اللهجة العامية. وشكل الكلمتين قسط وقسطاس مرده إلى ترك أو حذف الحركة الأخيرة فى الكلمة اللاتينية (us -). وهى ظاهرة معتادة فى تعريب الألفاظ اليونانية واللاتينية (مثلاً كلمة سقراط Socratés تعرب أحياناً بالحركة سقراطيس وأحياناً أخرى بدونها لتصبح سقراط).

٢ ـ بـــرج:

هذه الكلمة التى تجاهلها جيفرى Jeffrey وآخرون ترجع إلى الكلمة اللاتينية burgus، التى تعنى الحصن المنيع والتى استعملها الكاتب العسكرى فيجيتيوس ريناتوس Vege-tius Renatus (Végèce) خلال حياته مابين القرن الرابع والخامس بعد الميلاد، فى كتابه Epitoma rei militaria (IV, 10).

٣ ـ الكهــف:

هذا اللفظ الذى لم تشر إليه القوائم ماهو إلا اشتقاق من الكلمة اللاتينية: Cavea التى تعنى الجوف. (Pline l'Ancien, Naturalis Historia, livre XI, par. 3).

٤ ـ قنطـــار:

إنها كلمة لاتينية أصلها centum librae (مكيال قدره ١٠٠ رطل) تحولت بعد ذلك إلى كلمة: quintal أو quintalium ومنها الكلمة الفرنسية quintal.

٥ - سـراط:

وأصلها الكلمة اللاتينية Strata والمقصود منها الدرب المبلّط أو الطريق العريض.
(Eutropius, fin du 4ème siècle: Breviarium historiae Romanae, éd. Rûhl, 1887, IX, 15; St Augustin, Sermones, éd. Mai IX, 21).

ويتبقى لنا إذن ثلاث ألفاظ ذكرت فى قائمتى الزركشى والسيوطى كألفاظ رومية وهى التى أشار إليها شينله: سرىّ، رقيم، طفقا. لم نستطع العثور على الأصل اللاتينى أو اليونانى لهذه الألفاظ. وتجدر الإشارة فيما يتعلق بكلمة رقيم أنها فسرت بمعانى مختلفة من طرف مفسرى القرآن. وقد وردت فى الآية ١٨ من سورة الكهف.

كما اختلف المستشرقون فى معناها. إذ يعتقد تورى Torrey أن هذا اللفظ ينطبق على Deccius الإمبراطور البيزنطى (٢٤٩ - ٢٥١) الذى لجأ فى عهده الشباب المسيحيون السبع إلى كهف قرب منطقة إيفاز Ephèse. ويفترض هوروفيتز (Horovitz, Koranishe Vntersuchungen. p. 95) أن كلمة رقيم ماهى إلا نقش حفر على ساحة الكهف. وهذا الافتراض خاطىء طبعاً مثل افتراض تورى (in Qrieutal Studies presented to E.G. Browne, 1922, p. 457 - 9).

أما كلمة طفقا ومنها الفعل طفق فتفسرها المعاجم العربية كالآتى: طفق، يفعل الشىء أو يستمر يفعله. فالفعل طفق من أفعال المقاربة.

فلماذا حيّرت هذه الكلمة شينله لدرجة أنه راح يبحث لها عن أصل يونانى؟!

يبقى لفظ سرىّ الذى لو استعمل كصفة يفهم منه التألق والعظمة. لكننا نجد فى المعاجم العربية معنى آخر هو الجدول الصغير الذى يحفر حول النخلة (Dict. arabe - français de Kazimirokî).

فالمعنى الذى تضمنته قائمتى الزركشى والسيوطى هو الذى جعل شينله يعتقد أن أصل كلمة سرى يونانى (أو لاتينى).

ونقرأ فى لسان العرب لابن منظور: «السرى: النهر (عن ثعلب) وقيل: الجدول، وقيل:

النهر الصغير كالجدول يجرى إلى النخل. والجمع أسرية وسريان، حكاها سيبويه... وروى عن ابن عباس أنه قال: السريّ الجدول، وهو قول أهل اللغة. وأنشد أبو عبيد قول لبيد يصف فيه نخلاً نابتاً على ماء النهر:

سحقٌ يمتّعها الصّفا وسرية عمٌّ نواعم بينهن كرومُ

إن هذا البيت الشعرى يجعلنا نفترض ان كلمة سرى قد دخلت فى نسيج اللغة العربية قبل مجىء الإسلام، بمعنى الجدول الذى يجرى عند قاعدة النخل.

لقد بحثنا دون جدوى عن كلمة لاتينية أو يونانية يشبه تركيبها لتركيب الكلمة سرى. ولم نجد مايعادل معنى «الجدول» سوى الكلمات اليونانية: ochetos, hudragôgos, sôlên. واللاتينية: canalicus, canalis, fossa, sulcus, rivus, euripus, elicés, incilia.

لاتوجد فى هذه الكلمات واحدة تقترب من كلمة سرى. وربما أقربها إليها كلمة Sôlên اليونانية وكلمة sulcus اللاتينية، لكنهما مع ذلك تظلان مختلفتان عنها كثيراً إلا إذا افترضنا أن الكلمة العربية قد حُرِّفت تماماً عن الأصل.

الفصل الثانى عشر

حول العبارة القرآنية: «يا أخــت هـــارون»

(أ) ريلاند **Reland** ودفاعه عن الإسلام

دفعت، على هامش دراستى عن الدين عند كانط (الجزء الرابع، فى تناولنا لمذهبه) إلى البحث عن المصادر التى استند إليها هذا الفيلسوف فيما يتعلق بالإسلام والتى أشار إليها عدة مرات فى عمله[١]. ومن هنا بدأت أهتم بالعمل القدير والقيم الذى قام به أدريان ريلاند Adrien Reland (الذى ولد فى هولندا الشمالية عام ١٦٧٦ وتوفى فى مدينة أولترشت Ul-trecht عام ١٧١٨). وخاصة كتابه «الديانة المحمدية» De Religione Mohammadica (premiére édition 1705, 2eme edition 1717)[2].

لقد شدنى فى هذا الكتاب اعتداله وموقف مؤلفه الموضوعى إزاء الإسلام وإزاء النبى محمد. وهو موقف يثير فعلاً الانتباه بعد سلسلة من المهاجمين توالت منذ القرن الثالث عشر (وحتى قبل ذلك) حتى نهاية القرن السابع عشر[٣].

لقد كتب أدريان ريلاند فى كتابه الذى أهداه إلى أخيه بيار ريلاند (المحامى فى امستردام) أنه طالما أن الإسلام هو على تلك الصورة التى رسمها لها المهاجمين المسيحيين الأوروبيين كيف يمكن تفسر إذن «أن عدداً كبيراً من الأمم المختلفة اعتنقت ديناً بهذا الغباء؟ اللهم إذا نظرنا إلى المحمديين كحيوانات غبية. وكيف يمكننا تبنى هذه النظرة إذا تفحصنا آثار وكتابات هذه الطائفة؟ التى مثلما هو ظاهر، برهنت على عبقرية وعمق لم يوجد له مثيل لدى شعوب أخرى. إن العرب الذين ولد هذا الدين فى ديارهم قد امتلكوا

(1) Immanuel Kant: Werke.

(2) Adriani Relandi: Die Religioni Mohammedicae, ex codice manuscripto arabice editum, latine versum, et Notis illustratiem p[osterior examinat nonnulla, quae falso Mohammedanis tribuntur. Ultrajecti, ex officina Guliehni Brocdelet, 1705.

(٣) راجع العرض القصير والمفيد (نورمان دانيال: الإسلام والغرب
Norman Daniel: Islam and the West. Edinburg, 1958.

علماً وفنوناً لعدة قرون وخاصة خلال القرن العاشر، بينما ترك المسيحيون كل شيء يذبل ويموت ويتبلد في غربنا»[1].

فحمل ريلاند على نفسه إذن دراسة الدين الإسلامي معتمداً على المصادر العربية مما جعله يحيط بالإسلام بشكل مختلف عما كان سائداً في الغرب. «يجب ان اعترف بعد ان فحصت الإسلام فحصاً عقلانياً، انني وجدت فيه وجهاً اخر مختلف عن ذلك الوجه المنسوب إليه. مما دفعني إلى السعي للكشف عن المعنى الحقيقي للعالم بكل الألوان التي تناسبه»[2].

لقد توصل ريلاند Reland متشبعاً بهذا الفكر، إلى نتائج واحكام صحيحة ومتوزنة مقابل اراء الكتاب المعاصرين بآلاف الأميال. لقد كان الأجدر بهؤلاء الإطلاع على ماكتبه ريلاند قبل أن يطلقوا مهاتراتهم.

لقد كان ريلاند من ديانة بروتستانتية، لكنه لم يعمد إلى الكشف على حقيقة الإسلام من منطلق أن البابويين "Papistes" يقارنون البروتستانت بالمسلمين. بل كان دافعه كما يقول هو «البحث عن الحقيقة حثيما وجدت، إن إغلاق الباب امام الاكاذيب من كل صوب مهمة جديرة بالثناء في كل وقت، إذ تكشف للناس عن ديانة منتشرة غير محرّفة لاتثقلها سحب الغيبة والتغليط. ديانة تظهر للناس بشكلها الحقيقي الذي يلقن في معابد ومدارس المحمديين. من هذا المنطلق فقط يمكننا إذن مهاجمتها بنجاح. وإن لم نستطع تدميرها داخل كيان الأتراك وغيرهم من الكفار فإننا سنستطيع على الأقل تدمير وجودها في فكرنا».

ثم يسرد التشابهات بين مذهب لوثر Luther وبين المحمديين. وهي التشابهات التي التقطها كاتب باسم فيفالدو. ونوجز هذه التشابهات فيما يلي:

١ ـ لقد تباهى محمد بإتيان الإنجيل الحقيقي الوحيد، اى مايجب الاخذ به في العهد القديم والعهد الجديد، ونفى باقي ماجاء بهما.

---

(١) ص ١٦٢ هـ.

(2) Trad. - Citée. p VII.

وبالمثل تجرأ الكافر لوثر على القول أن ألمانيا لم يكن لديها من قبل إنجيل.

٢ ـ ينقسم الإسلام إلى ٧٠ طائفة وكذلك الإنجيليون.

٣ ـ لقد أمر محمد بأن يحكم في الأمور وفقاً لكتاباته، وهكذا فعل أهل البدع أي أنصار لوثر.

٤ ـ اقتطع محمد من الصيام عشرة أيام وحصره على شهر واحد، أي شهر رمضان، وفي المقابل لم يكتف لوثر بتغيير الصيام بل ألغاه تماماً مثلما ألغى كل أنواع الصيام.

٥ ـ استبدل محمد الأحد بالجمعة. ومن جهته عارض لوثر كل تمجيد للأعياد.

٦ ـ لقد دمر محمد الصور أما أنصار لوثر فلقد دنسوها ورموها.

٧ ـ يسخر محمد من التبجيل بالقديسين، وهذا مافعله أنصار لوثر كذلك.

٨ ـ لم يسمح محمد بالتعميد، أما كالفين Calvin فلم يرى فيه أية ضرورة.

٩ ـ يتزوج المحمديون بأي عدد يريدون من النساء، أو على الأقل بأي عدد يستطيعون إعالته، ويوافق بوسر وأولمدورب Bucer et Olemdorp على هذه العادة.

١٠ ـ ينكر المحمديون حسبان الحسنات لشخص آخر غير الذي قام بها. أما أنصار لوثر فيؤكدون أن أحسن أعمالنا هي خطايا.

١١ ـ لقد اعترض محمد على مبدأ حرية الإرادة Franc-Arbitre، وقد فعل أنصار لوثر بالمثل.

من المفيد التذكير بهذه المقارنة التي قام بها المستشرقون لبعض المؤلفين المسلمين المعاصرين[١] الذين تصوروا أنهم قاموا باكتشاف كبير لما قاربوا بين الإسلام والديانة البروتستانتية.

(١) مثلاً الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد والشيخ أمين الخولي في محاضرة ألقيت خلال مؤتمر الديانات الذي انعقد في مدينة ليدن عام ١٩٣٤.

إن المشابهة التي اقترحها دوم مارتينو فيفالدو Dom Martini Vivaldo والتي استشهد بها ريلاند صحيحة إلى حد ما، لو أخذنا الإسلام والبروتستانتية ككل، أي دون أن نأخذ في الاعتبار الآراء الخاصة داخل كل منهما. لكن هذه المشابهة تستدعي بعض الملاحظات:

(أ) على حد معرفتنا لم يسبق لأي مؤرخ لديانة البروتستانت أن قسم الطوائف المنتمية للوثر إلى ٧٠ طائفة. ويمكن لفيفالدو أن يعدّ مايشاء من الطوائف، لكن هذا لن يغير في الأمر شيء، فالرقم لم يراد منه أبداً على علمي «الإشارة إلى مختلف التشكيلات للكنائس البروتستانتية» في حين جاء صراحة في حديث للرسول: «ستنقسم امتي إلى سبعين طائفة وأحياناً ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ مصيرها للنار إلا التي تتبعني وأصحابي».

(ب) فيما يتعلق بالنقطة (٩) فإننا نعلم أن لوثر يعترف بتعدد الزوجات ويبرره. حيث يظهر موقفه جلياً من خلال قضية كارلشتات Carlstadt 1524 وخاصة في قضية هانري السادس Henri VI[1]. ولقد أسس موقفه على أن العهد القديم نص في مواضع كثيرة على تعدد الزوجات كممارسة مشروعة، وعلى أن العهد الجديد لم يدنها صراحة. وفي المقابل نجد أن كالفن Calvin يدينها ويفسر حالة البطارقة في العهد القديم على أنها تنازل من الله أمام جشعهم. (انظر تفسيره للتكوين Commentraire sur la Genèse, IV, 19 Corpus, t. XXIII, p 99). أما أفكار بوسر Bucer حول الزواج عموماً فجديرة ببحث دقيق.

(جـ) النقطة الأخيرة المتعلقة بحرية الإرادة Le Libre Arbitre تنطبق على المذهب الأشعري والسني وموقفهما من هذه المسألة.

لم يعترض ريلاند على عرض فيفالدي لكنه أضاف إليه تشابهاً آخر بين المحمديين والكاثوليك استخلصها من كلام فيفالدو. إذ أشار هذا الأخير إلى نقاط توافق بين الإسلام والكاثوليكية. حيث يقول كما جاء في كتاب ريلاند أن «هناك أموراً عديدة يقترب فيها

---

(١) انظر في هذا الموضوع:

Straph: Martin Luther über Sie Ehe, 1857.

E. Salfeld: Luthers Lehre von der Ehr, Leipzig, 1882.

Cristiani: Luther er le luthérisme, 7ene étude, p 207 - 255.

المحمديون منا نحن المسيحيون الكاثوليك». اولاً، انهم يعبدون الإله الحق ولا يعبدون الاصنام، وحتى وإن كانوا ينكرون كون المسيح ابن الله إلا انهم يعتبرونه رسولاً عظيماً واخر رسول من العبريين. فهم يؤمنون انه خلق من نفخ إلهى وانه ولد من عذراء دون تدخل اى رجل. وانه تلقى من الله قوة معالجة الامراض وطرد الشياطين وإحياء الاموات وفعل كل ما ذكر عنه فى اناجيلنا. ويعتقدون علاوة على هذا ان المسيح على علم بأسرار القلوب وبكل الكتب السماوية وبحكمة موسى وبكل مايفعله الناس فى بيوتهم وبكل مايكتنزونه فى خزائنهم، إنهم يعتقدون كذلك أن المسيح نبذ كل الثروات، وتخلص من نير الشهوات وصمد امام كل انواع اللذات المغرية التى تؤدى للخطيئة. وتعلم المحمديون من معلمهم أن الملاك جبرائيل حيا مريم العذراء **﴿إذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾**.

ويقولون ايضاً ان الشيطان لم يستثن احداً من إيذائه إلا يسوع ومريم امه. إنها لشهادة قيمة ورائعة عن الصورة النقية للطاهرة العذراء. وهم إضافة إلى هذا ينشدون بمزامير داود مثل مانفعل نحن المسيحيين. وعندما يزورون نبيهم لايشعرون بالتطهر التام إلا بعد أن يقوموا بنفس الزيارة للعذراء.

واخيراً، إذا اراد يهودياً اعتناق ديانتهم فإنهم يجبرونه قبل كل شىء على «الإيمان بيسوع» حيث يسأل: «هل تؤمن ان يسوع المسيح قد ولد من عذراء بنفخ من الله وانه اخر الانبياء من العبريين؟ وعندما يجيب بالإيجاب يصبح محمدياً». ويعلق ريلاند على هذا التقارب بشكل اخر موجهاً كلامه إلى فيفالدو: «وفقاً لطريقة تحليلكم للموضوع اصبحنا كلنا محمديين!».

فعلاً إن فيفالدو يذهب فى سبيل إقامة هذا التشابه بعيداً فى فهمه للقران. لنرى ذلك عن قرب:

(أ) عندما يستخلص من الآية ٤٢ من سورة ال عمران **﴿وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾** أن القران يعترف بعقيدة نقاء مريم.

(ب) عندما يدعى ان «المحمديين ينشدون مزامير داود مثلما نفعل نحن المسيحيون» وهذا بطبيعة الحال خطأ، إذ أن المحمديين لاينشدون هذه المزامير ولايعترفون بها بالشكل الذى تنشد به من طرف للمسيحيين. فالقران لم ينكر سوى اسم «الزبور» الذى من المفروض أنه يدل على الكتاب المقدس المنزل على داود مثلما نزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى.

(جـ) ويقترف فيفالدو كذبة سانجة عندما يدعى أن المحمديين «لايشعرون أنهم تطهروا فعلياً بعد زيارتهم لقبر نبيهم إلا بعد أن يزوروا قبر مريم»، فبداية نقول أن المسلمين لايعرفون مكان قبر مريم بل وأكثر من ذلك فإن هذا القبر غير موجود فى ضواحى المدينة المنورة التى يوجد بها قبر الرسول، فمن أين أتى فيفالدو بهذه المعلومة الخاطئة؟!

(د) مايقوله بشأن السؤال الذى يطرح على اليهودى قبل أن يدخل الإسلام مجرد دلالة أخذها من كون ضرورة إيمان كل مسلم بهذه العقيدة التى نص عليها القران. وبالتالى على اليهودى عند اعتناقه الإسلام أن يؤمن بحقيقة ماجاء فى القران. لكن بصفة إجمالية وليس بصورة مجزأة.

(هـ) أما باقى ما قاله فيفالدو بشأن عيسى فهى قريبة نوعاً ما من الحقيقة.

من المتوقع بعد هذا التقارب بين الإسلام والكاثوليكية الذى أسهب فيه «دوم مارتينو الفونسو فيفالدو» أن لايعترض على إطلاع هؤلاء على كتاب أولئك.

لكن فيفالدو يخيب التوقع ويؤكد فى كتابه: Chandelier d'or de la S. Eglise de Dieu, à savoir Jésus - Christ. أن «كتاب محمد لايجب أن يقرأ. بل يجب أن ينتهك ويمقت ويرمى فى اللهب اينما وجد».

ولريلاند رأى معارض - ليس لأنه يحترم القرآن أو الإسلام، فهو ليس أقل قسوة على الإسلام من فيفالدو - إذ يرى أنه يجب قراءة القرآن للتعمق فى معرفة دين محمد «ولمهاجمته بعد ذلك بنجاح أكبر وتضييق الخناق عليه إن صح التعبير». ويستشهد تدعيماً لطرحه بعبارات مرعشى Marracci مترجم القرآن الشهير والذى أكد فى ديباجة كتابه Prodomus أن الديانة الإسلامية «قد حافظت على كل ماهو معقول ومقنع مما جاء فى

الديانة المسيحية إضافة إلى كل مايبدو لنا متناسقاً مع قانون الطبيعة. ونبنت من حقائقها كل ألغاز الإنجيل التي تبدو لنا صعبة التصديق والمنال. كما تخلصت من كل القواعد الأخلاقية العسيرة على الإنسانية التي نجدها في المسيحية... وبالتالي فإننا نجد أن الكفار اليوم لايجدون صعوبة في التخلي عن معتقداتهم الوثنية لاعتناق الإسلام على عكس ماهو عليه الحال لو طلب منهم اعتناق المسيحية.

ويضيف مرعشي في كتابه «دحض القرآن» La Réfutation de l'Alcoran بوضوح: «لقد كنت دائم الاعتقاد في أنه لو قدم القرآن والإنجيل للكفار، اختاروا الأول بدلاً من الثاني. مما لاشك فيه أن كتاب محمد يقدم للعقل في الوهلة الأولى أفكاراً عقلانية. خاصة لو كانت هذه العقلانية منحرفة وترفض الألغاز. من هذه الأفكار أن الله واحد وجبار، خالق كل شيء، لايمكن تشبيهه بالمخلوقات، وأنه يجب أن يصلى له باستمرار وبحرارة، وأن الزكاة للفقراء واجبة، وأن الحج واجب، وأنه يجب التغلب على النفس بالصوم، والحفاظ على العدل والاعتدال والطيبة والتقوى وعلى كل الخصال الاجتماعية وعدم التعرض للآخرين بسوء، وتجنب السرقة والقتل والزنا وكل الجرائم، والتعالي على أمر الدنيا الفانية والتمسك بالأعمال الصالحة التي لايفنى جزاءها، وأخيراً أننا سنقدم كلنا كشف حسابنا لله: حيث يكون جزاء الطيبين النعيم الأبدي أما الأشرار فينتظرهم مصير جهنم. يعج القرآن بمثل هذه الأفكار الأقرب إلى العقل في ظاهره من بعض الأفكار الإنجيلية. فلو سمع أحد الكفار في المقابل أحد مبشرينا يقول له إن الله الحق هو واحد في ثلاثة، وأن الله أخذ صورة رجل، وأنه كان فقيراً وعانى كثيراً ثم صلب ومات ودفن وأنه مجسد في أسرار الأوكارستية Eucharistie وأن سر التوبة ضرورية وأن الزواج من امرأة واحدة أمر حتمي وأن الرباط المقدس لايفك وأن الحياة صليب مستمر وأن على المرء أن يحسن لأعدائه. حيث تربط الديانة المسيحية النعيم بأمور لم ترها العين ولم تسمعها الأذن ولم يشعر بها قلب إنسان. فأقول إذن لو سمع كافر كل هذه الأشياء ثم قارنها بالمفاهيم القرآنية ماتظنوه سيختار. إنه سيختار حتماً القرآن». ويضيف ريلاند «إن مرعشي يعلنها بوضوح ولايعتقد أن عرض الإنجيل بهذه الصورة يجلب المستمعين فإن هؤلاء سيفضلون محمد وسيعتنقونه بكل جوارحهم».

إن موضوعية كلام مرعشي[1] جديرة بكل الثناء. فعرضه للمعتقدات الإسلامية واضح ودقيق لاتشويه الاحكام المسبقة. من الضرورى التاكيد على موقف مرعشي حيث جرت العادة على تقديمه بصورة مغايرة لما هو عليه فعلاً بسبب عدم الإطلاع مباشرة على عمله والاكتفاء بما تناقله عنه الكُتّاب.

لنعد الآن إلى ريلاند الذى يشرح لماذا يجب الرجوع للمصادر الإسلامية الأصلية من اجل فهم الديانة الإسلامية حتى وإن انتهى الأمر بتفنيدها.

وقد كرس الفصل العاشر من كتابه لتبيان ضرورة معرفة الإسلام من خلال المصادر الإسلامية. لأن الكتب التى ألّفها الأوروبيون عن الإسلام ناقصة ومغلوطة وكاذبة «فهؤلاء الكُتّاب لم يحاربوا الإسلام بقدر ما حاربوا تهويماتهم، وهذا ما سأثبته بحجج بديهية، وسترون ان كل هؤلاء الكُتّاب يتخبطون كثيراً للوصول فى اخر المطاف لنتائج واهية. فاحدهما يكرس كل جهوده الميتافيزيقية ضد المسلمين ليثبت ان الله ليس جسداً وإنما روح. واخر يثبت ان الشياطين لايمكن ان تكون من اصدقاء الله وإنما هى اعدائه. واخر بذل مجهوداً مضنياً ليقول إن الوضوء لا علاقة له بنقاء الروح. وبعدما يستفيضون فى كل هذه المسائل نراهم يتصورون أنهم فندوا بقوة ديانة المحمديين.

هذا رغم أن لا محمد ولا اتباعه قد طرحوا هذه الآراء المنسوبة إليهم. وقعوا بالتالى فى السفسطة للتى يطلق عليها ignarto elenchi. إن هؤلاء الكُتّاب لايحاربون فى الواقع إلا خيالات ابتدعتها عقولهم. «إن كُتّابنا المعادين لمحمد بالغوا فى ضرب طبولهم ليس ضد اعداء حقيقيين لكن ضد خصوم وهميين بحيث يكون انتصارهم مضموناً، لايحتج عليه أحد».

ويبقى ان الإطلاع على المصادر الإسلامية الأصلية يستدعى إتقان تام للغة العربية بل اكثر من ذلك فمعرفة اللغة العربية ضرورية «لشرح الفاظ صعبة لم ترد سوى مرة واحدة فى الكتابات مثل ماهو عليه الحال فى سفر ايوب وفى سفر الرسل وغير ذلك».

---

(١) لودفيكو مرعشى (١٦١٢ ـ ١٧٠٠): عالم لاهوتى متعرب اعتمد على المصادر العربية. ويعتبر كتابه Prodomus at Refurationem Al Corani (1661) عملاً قيماً ومرجعاً هاماً. حيث كتبه كمقدمة لترجمته للقران وهى بعنوان: Al Corani Textus universus (1699).

ويقصد ريلاند من هذا الكلام أن الكلمات الآرامية التى وردت فى بعض مواضع من الإنجيل يمكن تفسير معناها بالاستعانة بالعربية. وإذا اعترض أحد على هذا الطرح من منطلق أن الكلمة العربية تحمل أحياناً معنى يختلف عنه معناها فى اللغة الآرامية أو العبرية. لكن ريلاند يجيب قائلاً إن كان هذا صحيحاً بصفة عامة يبقى أن نفس الألفاظ بالعبرية وبالسريانية وبالعربية تحمل معانى متقاربة جداً.

وينقسم كتاب ريلاند إلى جزءين:

(أ) الجزء الأول عبارة عن نص عربى عن العقيدة، ترجمه إلى اللاتينية وأرفقه بملاحظات إيضاحية.

(ب) ويحتوى الجزء الثانى على توضيحات عن الديانة المحمدية جاءت فى ٤١ فقرة يناقش فيها الآراء الخاطئة التى نسبت لمحمد.

(أ) العقيـدة:

لايعطى ريلاند أية معلومات عن النص العربى الذى استخدمه فى كتابه. واكتفى بالقول «لقد عثرت على عدة أشكال لعلوم الدين المحمدى كلها ذات قيمة كبيرة وضعها عرب تفوقوا فى العلم والشهرة، ومن بين هذه النصوص عثرت على نص بدا لى أكثرها إيجازاً ومنهجية. ولم أستطع الامتناع عن ترجمته للغة اللاتينية. ويبدأ النص العربى كالآتى:

«الحمد لله الذى هدانا إلى الإيمان، وجعله مهراً لدخول الجنان، وستراً بيننا وبين خلود النيران. والصلاة والسلام على محمد أفضل العباد، الهادى إلى سبيل الرشاد، وعلى آله وأصحابه الأمجاد، صلاة متوالية متنامية إلى أبد الآباد.

أما بعد: فهذا بيان صفة الإيمان ومعناه. اعلم أن الإيمان أول ركن من أركان الإسلام، كما قال النبى (ﷺ) بنى الإسلام على خمسة أركان».

وينتهى النص بالحديث عن الحج «باب الحج: أركان الحج خمسة: الإحرام، وهى النية: نويت أن أحج، وأحرمت لله تعالى. والوقوف بعرفة. والحلق أو التقصير بمنى. والطواف بالكعبة. والسعى بين الصفا والمروة. تم الكتاب».

إن هذا النص - يواصل ريلاند - قصير للغاية يتكون من ٣٠٥ سطراً وحوالى ٦ كلمات فى السطر. ونجده مقسماً إلى عدة فصول منها:

١ - باب الطهارة. ٢ - باب الصلاة. ٣ - باب الزكاة. ٤ - باب الصيام. ٥ - باب الحج.

أما فى المقدمة النظرية فإن هذا النص يتعرض لمسائل الإيمان حيث يمكن أن نطلق عليه باب الإيمان وتقسيمه إلى: ١ - فى الإيمان عامة. ٢ - الإيمان بالله. ٣ - الإيمان بالملائكة. ٤ - الإيمان بالكتب. ٥ - الإيمان بالرسل. ٦ - الإيمان باليوم الآخر. ٧ - الإيمان بالقدر.

ولقد أرفق ريلاند النص العربى وترجمته إلى اللاتينية بملاحظات مستفيضة تنم عن معرفة جيدة لبعض المصادر العربية والفارسية، وهى فى أغلبها غير معروفة فى عصره. وقد أعطى قائمة بهذه المصادر والكتب فى آخر كتابه. حيث نجد أن أربعة وعشرون منها كان بحوزته فى مكتبته الخاصة وأنه عثر على اثنين منها فى مكتبة امستردام كما استعان بأربعة منها كانت توجد فى مكتبة سيكا Sike أستاذ العبرية فى كامبريدج.

(ب) التوضيحات:

وهو عنوان الجزء الثانى من كتاب ريلاند. ويكتسب هذا الجزء اهمية كبيرة ولازال صالحاً إلى يومنا هذا. قسمه ريلاند إلى «٤٠ سؤالاً أو توضيحاً حول ديانة محمد فى مواجهة الآراء التى تنسب إليه. وسوف أبدأ هنا بعرض الرأى ثم أقدم استشهاداتى، وبعد ذلك اكشف عن الغلط والخطأ ويكون ذلك غالباً باكتشاف مصدرها، ثم افندها بحجج قوية.

وعلينا أن نأمل فى أن يتحلى المسيحيون مستقبلاً بالعدل فيما بينهم وتجاه أعدائهم وأن يكونوا أكثر تحفظاً تجاه مايقدم لهم من أوهام على أنها آراء محمد».

وهذه هى التوضيحات الأربعين التى يعرضها ريلاند:

١ - هل صحيح أن المحمديين يعملون بالحكمة القائلة أن كل امرىء سينجو فى ديانته إذا اتبع طريقاً سوياً؟

٢ ـ هل صحيح أن المحمديين يعتقدون فى إله مجسد؟

٣ ـ هل الله عند المحمديين هو مرتكب الخطيئة؟

٤ ـ هل يعبد المحمديون كوكب الزهرة؟

٥ ـ هل كان المحمديون يعبدون كل المخلوقات؟

٦ ـ هل ينكر المحمديون العناية الإلهية؟

٧ ـ هل يؤمنون بأن الله بنفسه يصلى لمحمد؟

٨ ـ هل ينكر المحمديون جهنم؟

٩ ـ إلى أى جهة يولى المحمديون وجوههم فى صلواتهم؟

١٠ ـ هل يعتقد المحمديون أن أوساخ الروح يغسلها وضوء الجسد؟

١١ ـ هل يوجد فى مبادىء المحمديين مايقول أن الشياطين أصدقاء الله؟

١٢ ـ هل يقول المحمديون بوجود ملائكة إناث؟

١٣ ـ هل قال محمد أن الملائكة الطيبة يمكن أن تقع فى الخطيئة؟

١٤ ـ هل يقول محمد أن الشياطين ضعفاء؟

١٥ ـ هل المحمديون اتباع اوريجين Origénistes(*)؟

١٦ ـ حول جنة محمد والنعيم الأعلى عند المحمديين.

١٧ ـ هل هناك خلاص للنساء عند محمد؟

١٨ ـ هل يذهب المحمديون لمكة لزيارة قبر محمد؟

(*) Origéne عالم لاهوت مسيحى ولد فى الإسكندرية (١٨٤/١٨٦ ـ ٢٥٢/٢٥٤)، لقد كان لأعماله اثر كبير على الفكر المسيحى لكنها اثارت جدلاً كبيراً لما تبناه يثار بعد نلك بقرون لسمه Origenisme. وانتهى الأمر بإدانة افكاره.

١٩ ـ هل جاء فى القرآن أن العذراء هى الأخت الشقيقة لموسى؟

٢٠ ـ هل قال محمد ان هامان وهو معاصر لمردوش Mardochée قد عاش فى عصر فرعون وموسى؟

٢١ ـ هل أنكر محمد أن يسوع المسيح قد مات؟

٢٢ ـ هل حملت مريم العذراء بعدما اكلت تمرأ كما جاء على لسان المحمديين؟

٢٣ ـ هل الكلب حيوان طاهر عند المحمديين؟

٢٤ ـ هل يعتقد المحمديون استناداً على مبدا من مبادىء عقيدتهم ان يجوز خرق اتفاقاتهم مع من يطلقون عليهم الكفار؟

٢٥ ـ هل تناقض واضع القران بشأن القران نفسه؟

٢٦ ـ هل خلط محمد بين الفرعون الذى رفع موسى وبين الفرعون الذى طغى على اخر شعوب الله والذى مات غرقاً فى البحر الأحمر؟

٢٧ ـ هل كان محمداً جغرافياً سيئاً لكونه وضع الكعبة فى وطن العمونيين؟

٢٨ ـ هل تعارض محمد مع نفسه فى القرآن بقوله تارة انه لايعرف القراءة وتارة أخرى أنه يعرف القراءة؟

٢٩ ـ هل تعارض محمد مع نفسه مرة أخرى عندما قال انه يقود رجاله على درب الخلاص مرة ثم عاد وقال انه لايعرف إن كان هو ورجاله على هذا الدرب؟

٣٠ ـ هل لم يذكر القران قط الله الخالق والخالد؟

٣١ ـ هل يجوز للمحمديين الزواج طبقاً لما تقرره عقيدتهم باى عدد من النساء طالما هم قادرين على الإنفاق عليهن؟

٣٢ ـ هل لم يأخذ المحمديين حذرهم فى غسل وجوههم؟

٣٣ ـ هل يعتبر موسى فى عداد المرفوضين من طرف المحمديين؟

٣٤ ـ هل لايعترف المحمديون إلا بثلاث أنبياء: موسى، يسوع المسيح، ومحمد؟

٣٥ ـ هل خلق الإنسان من علقة كما يقول محمد؟

٣٦ ـ هل أنكر محمد خلود الروح؟

٣٧ ـ هل قال محمد أن الذى قتل عدو أو قتل على يديه عرف الخلاص؟

٣٨ ـ هل صحيح مايقال عن محمد أنه ربى حمامة كانت تهمس فى أذنه كلما انتابه الصرع؟

٣٩ ـ هل يؤمن المحمديون بتعدد العوالم؟

٤٠ ـ هل استعار محمد مسألة الطهارة من اليهود الذين عاصروه؟

(ب) ياكوب ايرهارت Jacob Ehrharth وتوضيحاته

إن قائمة العناوين السابقة الذكر تعبر عن مجمل المغالطات التى تداولها علماء اللاهوت المسيحيين الذين كتبوا عن الإسلام حتى القرن السابع عشر.

ولو قارناها بالقائمة التى وضعها ياكوب ايرهارت أربعة عشر سنة[١] بعد ذلك (فى عام ١٧٣١) لوجدناها أكثر عمقاً وأكثر علماً وغنى من هذه الأخيرة.

إذ يحتوى كتاب ايرهارت على اثنى عشر فصلاً هى:

١ ـ الأفراد المختلفين وطرق التفكير فى الحياة، انبثاق ينبوع الحياة الطيبة عن طريق النبى محمد.

٢ ـ الجهل بمحمد وببعض الشهود والقضايا.

(1) De illustrium ac obscurorum Erroribus praecipiuis in historia Mahometi eorumque causis dissertatio, autore Jacob Ehrharth. Apud Joh. Paul. Rothium Bibloth. Ulm. MDCCXXI.

٣ - الجهل باللغة للعربية هو سبب الخطا فى معرفة مايتعلق بالنبى محمد.

٤ - الأخطاء للتاريخية والجغرافية والاختلاف حول بيته ووطنه.

٥ - اخطاء عن تواريخ القران.

٦ - الأخطاء والخرافات حول معلمى محمد خاصة «سرجيوس».

٧ - الأخطاء عن خداعه وسرقاته.

٨ - عن خداعه خاصة معجزة الحمام.

٩ - عن الأخطاء التى تدور حول قبر النبى محمد.

١٠ - عن المحدثين المحمديين.

١١ - عن أيقونة محمد وحالته كمثال.

١٢ - De ejus Epilespria.

إن هذا الكتاب لايتطرق إذن إلا إلى جزء صغير مما تعرض له ريلاند. ونجده فى المقابل يستفيض فى مسائل تطرق لها ريلاند مثل الادعاء بأن محمد كان يعانى من الصرع. كما يستشهد كثيراً[1] بريلاند واصفاً إياه بـ "doctissimus Relndus". ونجده يتفق معه مؤكداً أن «عدم الإلمام باللغة العربية هو سبب جهل الأمور المتصلة بمحمد»، ثم يكشف عن كم الأخطاء التى اقترفت بسبب جهل اللغة العربية خاصة فيما يتعلق بألفاظ الإسلام، مسلم، والقران. فكلمة مسلمان (وهى جمع مسلم بالفارسية والتركية) فسرت كالآتى: المسلم هو من سلم ونجا من الحرب وعاد منها، لأن الجميع الذين اعتنقوا المحمدية حماهم وحفظهم من حيث الجسد والحياة والممتلكات. (Sal. Schiv weigerus, in: Descript Itin. Constant. et Hierosal, liber II, p. 92).

اما كلمة القران فيفسرها شوستروس Schusterus (P. 11. p 41) تفسيراً غريباً:

---

(١) انظر صفحات ٢١، ٢٢، ٥٩، ٦٠، ١٧٢، ١٧٣.

«القران خليط عشوائى، غير منظم لأن القرآن مضطرب والتعامل معه تعامل مع عمل يتسم بالفوضى مثل من يقوم بإصلاح الأحذية القديمة غير مسموح أن يقوم بعمل جديد صحيح، ولا يستطيع. ولذلك يقوم بترقيع الأحذية القديمة، مرة بنعل قديم وأخرى بنعل جديد، مرة يرقعها من أعلى ومرة من أسفل وأخرى فى المنتصف كما يتعامل مع شخص معتوه».

ولهذا يتفق الكاتبان ريلاند وايرهارت على ان لبعض «الإغريق» تأثير سلبى على فهم الإسلام وانهم ابتدعوا مغالطات وقع فيها من تبعهم. هؤلاء الإغريق هم البيزنطيون الذين طردوا من الإمبراطورية البيزنطية بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م. حيث نشر هؤلاء بدافع الحقد والضغينة والتأثر مختلف الأكاذيب عن الإسلام، ديانة الأتراك الذين طردوهم. ويستشهد ياكوب ايرهارت بهذا الخصوص جملة كتبها كروزيو Crosio فى كتابه des dis-sertations historiques sur sivers sujeto p.21. يقول فيها «لقد أصبحنا اليوم أكثر إلماماً من أى وقت مضى خلال القرون الماضية، بعقائد وبسير حياة النبى محمد. إن الخرافات التى نسجها الإغريق حول أصل الديانة الإسلامية لم تعد تصمد أمام شهادات عتيقة». ويذكر من بين هؤلاء الإغريق ثيوفون Theophone.

وبعد أن بيّن ريلاند ان أهم أسباب الأخطاء بشأن فهم الإسلام ترجع إلى جهل المستشرقين الغربيين اللغة العربية، يقول: «وقد صاحب جهل كتابنا الغربيين حماس كاذب لبعض الإغريق الذين يعيشون وسط المحمديين. وقد كان أحرى بهؤلاء المتحمسين البحث عن معرفة المحمديين ودراسة لغتهم المقدسة بدلاً من تشويه صورتهم عن سوء نية مبيتة ضد خصوم منتصرين. وهذا مادفعنى لإعطاء صورة حقيقية عن هذه الديانة ولتصحيح ماينسب إليها من مهاترات».

(ج) مريم يا اخت هارون!

من بين الأربعين سؤالاً الذين اثارهم ريلاند فى كتابه هناك السؤال ١٩: هل صحيح ماجاء فى القران من ان العذراء اخت هارون؟ وهو السؤال الذى سنوضحه فيما يلى نظراً لأنه مثار إلى يومنا هذا.

وقد جاء في نص ريلاند اللاتيني ما يمكن تلخيصه كالآتي:

(أ) جرى الادعاء بأن محمد أكد في القرآن على أن مريم أم يسوع المسيح هي أخت هارون وموسى.

(ب) من بين الذين يدعون هذا هناك يوحنا الدمشقي Jean Damascene في كتابه «الطوائف» De Haeresibus. ثم ردد نفس الادعاء المستشرق نيكولا دو كوز Nicholas de Cuse في كتابه «نقد القرآن» (الكتاب الأول، الفصل الرابع) Cribratio Alcorani, lib. 1, cap. 4, p. 44. ثم نقل جان اندروس Joh. Andreas نفس الفكرة في كتابه «فوضى طائفة محمد» De confusione secrate Mohometanae. p. 51. وهورنبك Hornbek في كتابه Summa Coutrov., P. 128. وكذلك اثيمويس زيجابينوس Euthymuis Zigabenus in Panople. Dogmat. وتبعهم بعد ذلك كثيرون. كل هؤلاء تذرعوا بالفرق الزمني بين هارون ومريم ورفعوا راية الهجوم على القرآن ناكرين صفقته الإلهية.

(جـ) ويدعي ريلاند أنه من الجائز أن نفترض أن محمداً كان بدرجة من الجهل بالتاريخ جعلته يخلط بين زمن موسى وزمن يسوع. وأنه لم يحفظ جيداً بعض الأساطير المنتمية لفترات تاريخية مختلفة. وخاصة أنه يصف نفسه بالنبي الأميّ.

(د) لكن القول بأن القرآن ينادي مريم بأخت موسى مسألة أخرى. لأن القرآن - يضيف ريلاند - يقول في سورة مريم، الآية ٢٩: ﴿يا أخت هارون﴾.

(هـ) وإذا قلتم لي - ريلاند هو المتحدث - من يكون هارون هذا إن لم يكن شقيق موسى؟ فأجيبكم: إن هذا مجرد تأويل قام به المسيحيون. فهو ليس تأويل محمد ولا تأويلي أنا. إذ من المحتمل أن يكون لمريم أخ اسمه هارون لم يدون اسمه أي كاتب ولم يذكره سوى القرآن!

(و) الاحتمال الآخر هو أن هناك من يعتقد من المسلمين بأن مريم أخت موسى قد حفظت بمعجزة منذ عهد موسى إلى غاية عهد يسوع المسيح لتصبح أمه.

(ز) الاحتمال الثالث نجده لدى هربلوت D. Herbelot, Bibliothèque Orientale.

p. 583 الذي يقول أن مريم تنتمي إلى عائلة عمران أبو موسى وهارون لأنها تنحدر من فرع هارون الذي تنتمي إليه أمها. أي من العائلة الكهنوتية، إذ جاء في الإنجيل (انظر لوقا ١:٣٦) أن إليصابات هي نسيبة مريم وأنها تنحدر من هارون (انظر لوقا ١:٥). ويتبنى بعض المفسرين المسلمين هذا الرأي.

(ح) ويضيف هؤلاء المفسرين أن عمران أب مريم هو ابن ماثان، وبالتالي فهو ليس ذلك العمران والد مريم أخت موسى. ويعتقدون أن هذا الأخير هو ذلك الذي يطلق عليه المسيحيون اسم يوهاكيم Joachim زوج القديسة انا Anne ووالد مريم أم يسوع. فهناك إذن عمران والد مريم أخت موسى وهارون، وعمران والد ام يسوع.

(ط) لم يتبن ريلاند أياً من هذه الاحتمالات على أساس انها تحتمل الخطأ وتحتمل الصواب. لكنه متأكد في المقابل من انه لايمكن لأحد أن يثبت بأن القرآن يجعل من مريم والدة يسوع أختاً لموسى. وبالتالي لايستطيع خصوم القرآن والإسلام الاعتماد على العبارة القرآنية: ﴿يا أخت هارون﴾، فكل الاتهامات الموجهة للقرآن اعتماداً على هذه العبارة لا أساس لها من الصحة.

(د) بحث هذه الاحتمالات الأربعة:

لو دققنا في هذه الاحتمالات الأربعة فإننا نكتشف الآتي:

١ ـ الاحتمال الأول الذي يفترض أنه كان لمريم والدة عيسى أخاً اسمه هارون لم تذكره الوثائق المسيحية (أو اليهودية) بينما جاء ذكره في القرآن فقط. أقول أن هذا الاحتمال ليس مستحيلاً لكنه لم يرد في أي وثيقة أخرى.

٢ ـ أما الاحتمال الثاني القائل بأن مريم أخت موسى وهارون قد حفظت بمعجزة لمدة ١٥ قرناً لتصبح بعد ذلك والدة عيسى فهو مجرد مهاترة لم أعثر لها على أثر في كتابات مفسري القرآن. ولنا أن نتساءل أيضاً حول الحكمة من مثل هذه المعجزة؟ ثم إن القرآن لم يذكر اسم مريم أخت موسى ولم يعرها أي اهتمام. فلماذا إذن ينسب لها معجزة ما ويرفعها لمرتبة مريم أم عيسى؟ إن هذا الاحتمال إذن مجرد فرضية بلهاء.

٣ - الاحتمال الثالث الذي يفترض أن مريم أم عيسى تنتمي إلى عائلة عمران والد موسى وهارون يبدو أكثر الاحتمالات صواباً - فهو يستدعي تحليلاً أعمق سنتعرض له بعد أن نفرغ من الاحتمال الرابع.

٤ - إن الاحتمال الرابع يشبه كثيراً الاحتمال الأول. إذ هو يفترض أن هناك عمراتان. الأول هو والد موسى والثاني والد مريم أم عيسى. هذا الافتراض لم تثبته أي كتابة إنجيلية. ولهذا نقول أن الاحتمالين الأول والثاني مجرد فرضيات واهية ابتكرت لخدمة قضية المستشرقين.

ونعود إلى الاحتمال الثالث لنلقي عليه نظرة أكثر عمقاً..

(١) مريم تنحدر من هارون:

نبدأ بمشكلة علاقة النسب بين مريم أم عيسى وهارون ابن عمران وأخ موسى. حلقة الوصل بينهما هي اليصابات Elissabeth زوجة زكريا ووالدة يحيى Jeau-Baptisre والتي كانت تنتسب للعائلة الكهنوتية Sacerbotale وتنحدر من هارون كما جاء في كتاب لوقا (١:٥): «كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيًا وامرأته من بنات هارون واسمها إليصابات». ويؤكد الإنجيل كذلك على أن إليصابات كانت قريبة مريم بقوله: «وهو ذا إليصابات نسيبتك...» (لوقا ١:٣٦).

كما يؤكد هيبوليت St. Hippolyte (آخر القرن الثاني - بداية القرن الثالث) نقلاً عن Nicephore Calliare في (Hist. Ecclesiastique - 11,3,t. CXLV de la PG, Col. 760). أن والدتا مريم واليصابات كانتا أختان، وأطلقوا على الأول: Anne وعلى الثانية Sobé.

وفقاً لما جاء أعلاه فإن مريم هي قريبة إليصابات بل نجد أن هيبوليت Hippolyte يذهب إلى أن مريم واليصابات بنات خالات. وبما أن كتاب لوقا يؤكد على أن مريم تنحدر من هارون - ولا يناقضه في هذا أي مصدر آخر - فإنه يجوز لنا أن نستنتج انحدار مريم من سلالة هارون سواء من جهة الأم أو الأب.

(ب) عائلة عمران:

إن كانت كل من إليصابات ومريم تتحدران من هارون وإن كان هارون ابن عمران فإنه يحق أن نعتقد بأن هؤلاء الثلاثة ينتمون إلى آل عمران. وكذلك أبناتهم يحيى وعيسى. وهذا يفسر لنا ماجاء في سورة آل عمران التي تقول أن يحيى ووالدته ومريم وعيسى ينتمون لعائلة واحدة وهي عائلة عمران لأنهم ينحدرون كلهم من هارون.

لنطبق هذا التأويل على المواضع التي جاء فيها ذكر اسم عمران في القرآن:

١ ـ سورة آل عمران، الآية ٣٣/٣٤: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذريّة بعضها من بعض والله سميع عليم﴾.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية ٣٥: ﴿إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك مافي بطني محرراً فتقبل مني..﴾.

٣ ـ سورة التحريم، الآية ١٢: ﴿ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾.

وتنطبق الآية ٣٣ تماماً على تفسيرنا، وهو أن آل عمران ينحدر منها إليصابات زوجة يحيى ومريم وابنها عيسى، إضافة إلى موسى وهارون. فعائلة عمران كيان واحد يقابله كيان عائلة إبراهيم المكونة من ولديه: إسماعيل وإسحاق والمنحدرين مباشرة منهم (لاسيما يعقوب وولده يوسف).

ويمكن تفسير الآية ٣٥ بالاعتماد على أن عبارة «امرأة عمران» بمعناها غير المحدد أي بمعنى امرأة من آل عمران. حيث إن اسم عمران هو لقب العائلة ولا يقصد به اسم الزوج فقط.

أما الآية ١٢ من سورة التحريم فيمكن فهمها بنفس الطريقة. بالتالي يكون المقصود من عبارة «مريم ابنة عمران» مريم بنت آل عمران. وإذا تساءل أحد لماذا لم يذكر لقب مريم صراحة؟ ويمكن أن نجيب قائلين أن اسم والد مريم لم يذكر أيضاً في العهد الجديد. ويظل أهل مريم مجهولين لدى الكل. فأقدم الكتابات عنهم تعود إلى الأناجيل المكتوبة وإنجيل

مولد مريم. والبروتو ـ انجيل سان جاك v. Fabricius: Code & Apocyphus Novi) Jestamenti, t.1. p. 13-67). ويحكي في هذه الكتابات ان والد ان Anne والدة مريم كان كاهناً وكان يقطن بيت لحم. وأن والدة مريم تزوجت رجلاً اسمه يواكيم Joachim وكان أصله من الجليل. لايوجد اية معلومات عن هذا الأخير.

وإن كان العهد القديم لم يتطرق لاسم والد مريم ليس مطلوباً من القران ان يفعل ذلك. ولذا يظل اسمه مجهولاً للجميع حيث لانعرف عنه سوى انه كان من ال عمران.

(جـ) كيف نفسر عبارة «يا اخت هارون»؟

إن هذا الامر سهل ـ فى راينا ـ لقد استشهد ريلاند Reland كما جاء فى كتاب هيربلوت .D. Hebelot. la Bibliothéque Orientale ببعض تفسيرات قام بها الفقهاء المسلمون مفادها ان العبارة معناها: يامريم المنحدرة من عائلة هارون.

لكن، ورغم صحة هذا التفسير، صمم بعض المستشرقون على تكرار نفس الاتهام العقيم الذى ردده قبلهم يوحنا الدمشقى (حوالى ٦٧٥ ـ ٧٤٩).

ولتكتمل لنا الصورة نستعرض بعض اراء هؤلاء المستشرقين:

١ ـ هربرت جريم: «محمد» الجزء الثانى، ص ٩٢ – ٩٣ منستير ١٨٩٥: «وبمتابعة مسيرة تلك الفترة اتم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ استعارته من التعاليم المسيحية بأخذه لبعض الوثائق الحديثة كجعل عيسى ومريم ويحيى وزكريا فى سلسلة الأنبياء والقديسين.

وفى الفترة المدنية ضمت هذه المجموعة إلى العائلة المباركة والتى اطلق عليها بنى عمران، ولقد استقر على هذا الاسم نتيجة لل .... التاسية التى فيها ذكرت مريم أم عيسى وأنها هى نفسها مريم أخت موسى وهارون ومن ثم رفع الثلاثة المذكورين من قبل إلى عمرام الإنجيلى وأنه هو الاب الأول لأسرة الأنبياء المسيحيين».

٢ ـ يوسف هوروفيتس: «البحوث القرانية» ـ (برلين وليبسيج ١٩٢٦):

(أ) (ص ١٢٨) «ذكر عمران أن والد مريم (ماريا) أولاً فى الفترة المدنية سورة

التحريم ١٢ اية ٣: ٣٠، وقد ذكر فيما بعد بالتبادل مع واله آخت مؤمنى (مريم) سورة مريم، الآيات ٦، ٣٥، ٣٣، ٥٢، ٤٣، ٥٧.

(ب) (ص ١٣٨ – ١٣٩): كما اشير إلى أن مريم اخت لعمران في «آل عمران» اية ٣١، ٦٦، ١٢، في كلاً من الفترتين المدنية والمكية. وبدت ايضاً انها أخت هارون في سورة مريم اية ٢٩ وكذلك نلك بتبادل على أنها مريم اخت موسى وهارون في الوقت الأخير. كما اخذ محمد (ﷺ) الاسم المستخدم في النصوص الإنجيلية وعند الإغريق، وهو مريم ، وتعرف عليها عن طريق الوسائل السريانية (مريم الأثيوبية وماريا) أخت موسى وهارون، وأن الاسمين يعودان على نفس الشخص».

٣ ـ ويأخذ فنسنك A.J. Wensink في مقاله: «مريم» في موسوعة الإسلام (Maryam de l'Encyclopédie de l'Islam. t.3, p. 359. de la première édition). موقفاً اكثر تحفظاً كاتباً:

(أ) لقد لفترض ان اسم عمران الذى يقابله دون شك في الإنجيل اسم عمرام Am-ram والد موسى وأن ذكر مريم أختاً لهارون (السورة ١٩ الآية ٢٩) مرده إلى خلط بين الشخصيتان اللتان تحملان اسم مريم في الإنجيل. فيما يعتقد سال Sale وجيروك Ge-rock وغيرهم أن مثل هذا الخلط مستحيل. إن الكتابات الإسلامية تؤكد لنا، على اية حال، أن هناك ١٨٠٠ سنة تفصل بين كل من عمرام الذى ذكر في الإنجيل وبين والد مريم. ولم يذكر القران اسم زوجة عمران جدة عيسى. بينما اطلقت عليها الكتابات المسيحية والإسلامية اسم حنا Hanna. لكن الكتابات الإسلامية ذهبت ابعد من ذلك وتطرقت تفصيلاً لأصولها. فهي ابنة فاقوذ واخت إشباع (او إليصابات كما جاء في الإنجيل).

(ب) ويمكن ان نضيف بأن عبارة «يا اخت هارون» أن هارون لم يكن اخ موسى وإنما رجلاً عاصر مريم واشتهر بنفسه لدرجة أنها قورنت بها. او ربما كان اخاها فعلاً، وعرف بين الناس بصلاحه وتقواه.

٤ ـ ويقول ريجيس بلاشير Régis Blachère في ترجمته للقران (Le Coran-traduction selon un essi de reclassement des sourates, t, 11. Paris 1949) مخطأطى

الآية ٢٩ من السورة ١٩ ففي السورة الثالثة الآية ٣١ ذكرت والدة مريم على أنها امرأة عمران، وجاء في السورة ٦٦ الآية ١٢، مريم ابنة عمران. وهذا مايتعارض مع الكتابات المسيحية كما جاءت في الأناجيل، حيث سمي والد مريم «يواكيم» Joachim. هذا التعارض أزكى الجدل المسيحي ضد الإسلام الذي يبدو أن اشتعل في عهد محمد. (أنظر الطبري ٥٩). إذ اعترض مسيحيو نجران على الخلط بين مريم أم عيسى وبين مريم النبيّة أخت هارون التي يتحدث عنها سفر الخروج، ١٥، ٢٠ وسفر العدد ١٢، ١. ولتفادي هذا الهجوم اقترح الفقه الإسلامي أن هارون الذي ذكر في عبارة «يا أخت هارون» مختلف عن هارون أخ موسى، كما اقترح كذلك أن عبارة «يا أخت هارون» تحمل معنى المنحدرة من سلالة هارون. انظر في هذه المسألة: Excursus: Marye (T.11, p. 229 -230n).

• - رودي باريت Rudi Paret «القرآن: تعليقات ومناقشات» شتوتجر ١٩٧١:

ولا ينبغي أبداً تجاهل الخروج من هذا التكلس النسبي من الوثائق الحديثة التي تطلق مريم والوثائق القديمة التي تطلق اسم (مريم) وهذا يقتصر حقيقة على أصل الاسم وباستطاعة المرء أن يتحدث من خلال تبادل الاسم من ماريا ومريم.

والحقيقة الأخيرة هي أن محمد - صلى الله عليه وسلم - كان يرى دائماً أن عيسى ابن مريم - ماريا - كان ابن أخت موسى بمعنى الكلمة وأنه من سلسلة الجيل مباشرة دون وساطة، ولكنه يعود بعد هذا التأكيد القاطع إلى اتهام القرآن بالخلط حيث يقول: «إنه لمن العجيب أنه في نفس النص سورة مريم الآية ٢ والتي ذكرت فيها مريم أم عيسى كأخت لهارون قيل أن الله رحمة بموسى وهب له أخاه هارون نبياً، فهارون هنا يعد أيضاً أخو مريم كما هو أخو موسى».

هذا الاستنتاج خاطيء طبعاً، إذ لاتوجد صلة مباشرة بين الآية ٢٨ ﴿يا أخت هارون﴾ والآية ٥٠ التي تتحدث عن حقبة تاريخية أخرى متعلقة بموسى والتي تبدأ بجملة فاصلة هي: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيًا﴾. كل مايمكن قوله هو أن آراء باريت غامضة ومتناقضة.

الحلول الخمسة التي اقترحها المفسرون:

لو استعرضنا اراء العلماء الخمس التالية نكتشف ان:

(أ) المستشرقان جريم Grimme وهوروفيتز Horovitz يكرران الاتهام القديم. أى ان هناك خلط في القران بين مريم والدة عيسى ومريم اخت موسى وهارون دون ان يقدمان براهين إضافية أو مناقشة اخرى غير التي عرضها ريلاند منذ عام ١٧٠٥. وهذا الأمر يبدو غريباً نوعاً ما.

(ب) ويكتفى فنسنك Wensinck باستعراض اراء الآخرين: الذين يتبنون الاتهام والذين لايأخذون به. ويستشهد في نفس الوقت بأراء بعض المفسرين المسلمين.

(جـ) والجديد لدى بلاشير Blachère هو افتراضه القائل ان هذا الاتهام يعود إلى عهد محمد ويرجعنا إلى الطبرى ٥٩. ولم استطع ان احدد هذا المرجع. فهو يقصد بالطبرى (انظر شرح رموز المؤلفين في مقدمة الجزء الأول من تفسيره للقران). قلت إذن أن يقصد تفسير الطبرى وبالتالى فإن الرقم ٥٩ لايدل على شيء. إن بلاشير يريد في الواقع الإشارة إلى مايقوله الطبرى في تفسيره للآية ٢٩ من سورة مريم (الجزء ١٦. ص ٥١ ـ ٥٢. مطبعة الميمنية ـ القاهرة).

يقول الطبرى إذن ان لأهل التفسير اراء كثيرة ومختلفة حول سبب تسمية مريم بأخت هارون وحول من يكون هارون هذا الذى ذكره الله. فالبعض قال انها سميت بأخت هارون لتمنح صفة الصلاح. إذ كان يطلق على الصالحين من القوم اسم «هارون». فالمقصود بهارون لدى اصحاب هذا الراى ليس أخ موسى. ونقل هذا الراى الحسن عن عبدالرزاق عن معمر عن قتادة: الذى يؤكد بشأن عبارة «يا أخت هارون» أن هذا الاخير كان من أتقياء قوم إسرائيل وأن اسمه كان «هارون». وقد شبهوا مريم به في تقواه. ويحكى بشر عن يزيد عن سعيد أن قتادة قال بشأن السورة: ﴿يا اخت هارون ما كان ابوك امرإ سوء وما كانت امك بغيًا...﴾ (... تفسير الطبرى ص ٥٢ ـ ٥٤).

ويمكننا وفقاً لنص الطبرى تقسيم الآراء المتعلقة بعبارة «يا أخت هارون» إلى نوعين:

(أ) رأى يؤكد أن «هارون» المعنى هنا ليس أخ موسى.

(ب) ورأى يؤكد على النقيض أن هارون هو الأخ الشقيق لموسى.

نستطيع أن نميز فى الرأى الأول بين ثلاثة اتجاهات:

١ - اتجاه من يقولون أن هارون كان رجلاً صالحاً تقياً من رجال إسرائيل. وننعت بهذا الاسم كل رجل عرف بصلاحه.

٢ - اتجاه يؤكد أن «هارون» هذا كان رجلاً فاسقاً قورنت مريم به بسبب شكوك قومها فى عفتها.

٣ - اتجاه يذهب إلى أن مريم كان لها أخ اسمه هارون وكان رجلاً تقياً من رجال إسرائيل. ويتبنى هذا الرأى الفخر الرازى (التفسير ١١، ص ٣٧١).

أما الرأى الثانى الذى يؤكد أن هارون هو أخ موسى فيستند على أن عبارة «يا أخت هارون» مجرد عبارة مجازية المقصود منها: «المنحدرة من هارون»، مثلما يقال لرجل من قبيلة تميم: يا أخ تميم، أو لرجل من مضر: يا أخ مضر.

أما الطبرى الذى يستعرض كل هذه الآراء فإنه يتبنى فى الأخير الرأى الذى نقل عن الرسول والذى مفاده أن المعنىّ بهارون ليس أخ موسى وإنما رجل صالح من قوم مريم.

لكننا نجد أن فخر الدين الرازى[1] يتبنى رأياً مختلفاً تماماً إذ يؤكد أن الرسول قال أن هارون المشار إليه فى الآية هو هارون النبى وأن مريم من سلالته. فالعبارة «يا أخت هارون» هى مثل عبارة يا أخ همدان أى «يا أحد أفراد القبيلة».

وذكرت الرواية التى جاءت فى تفسير الطبرى، والتى تروى ماحدث للمغيرة بن شعبة لما بعث إلى أهل نجران، فى صحيح مسلم والترمذى والنسائى (انظر تفسير ابن كثير. الجزء ٣، القاهرة ١٩٥٤). وتعتمد هذه الراوية على مانقله عبدالله بن إدريس عن والده عن سيماك. ويلاحظ الترمذى أنه حديث حسن، صحيح، غريب.

(١) فخر الدين الرزاى: التفسير الكبير، الجزء الرابع، ص ٣٧١، مطبعة بولاق. القاهرة ١٨٦٢م

... ولو كان هذا الحديث المنسوب إلى المغيرة بن شعبة صحيحاً لقلب لنا كل معطيات المشكلة:

(أ) لأن هذا يعني أن اتهام القرآن بالخلط يعود إلى عهد النبي.

(ب) وأن يوحنا الدمشقي لم يقم سوى بترديد اتهام قديم يرجع إلى مائة سنة خلت (ولد يوحنا الدمشقي حوالى ٦٥٩ وتوفى حوالى ٧٥٠ ميلادية).

وفي هذه الحالة لنا أن نتساءل حول اختلاف وتعدد اراء المفسرين المسلمين حول هذا الاتهام طالما انه وجه لمحمد في حياته وانه هذا الأخير قد رد الرد الصحيح. لماذا لم يكتف هؤلاء المفسرون بنقل ما جاء على لسان الرسول وإفحام كل من يجرؤ على إثارة الاتهام.

من الطبيعي جداً أن يكون المسيحيون في المدينة، واليهود كذلك، قد اعترضوا على الآية ٢٩ من سورة مريم فور سماعهم لها لما نزلت في المدينة. لكن لاتوجد اية مراجع تتحدث عن هذا. فلماذا إذن يكون مسيحيو نجران هم وحدهم الذين اعترضوا؟ ولماذا لم يذكر القران الحادثة وهو الذى كان يسجل كل مجادلات الرسول مع اليهود والنصارى؟

كل هذه المسائل تثبت - في اعتقادنا - أن الرواية والحديث المرتبط بها - المنسوب إلى المغيرة بن شعبة - غير صحيحان. والأرجح أن هذا الحديث قد اختلق للتصدى لاتهامات المسيحيين خلال القرن الثاني أو الثالث الهجري.

حلنا للمشكلة:

نحن نقول ان المشكلة لم تطرح في عهد محمد لسبب بسيط وهو ان المسيحيين واليهود لم يروا في عبارة «يا أخت هارون» اية مشكلة. لانهم فهموا ان المقصود منها هو «أيتها المنحدرة من سلالة هارون» فقد اعتادوا - على غرار كل العرب - على عبارات «يا أخ...»، التي يفهم منها «ايها المنحدر من...»، ولم يخطر ببالهم - كما حدث لدى العلماء

المستشرقين[1] - أن محمد يجهل الفرق الزمني الشاسع بين هارون ومريم أم عيسى. وهذا ما لم يكن يخفى على أحد في المدينة انذاك التي كان يعيش فيها عدد كبير من اليهود.

من جهتنا يمكننا أن نضيف مثالين استشهد بهما الطبري لشرح عبارة «يا أخت هارون»:

١ - نقرأ في القران في السورة ١١، الآية ٥٠: **﴿إلى عاد اخاهم هوداً﴾** وقد ترجم بلاشير في تفسيره للقران كلمة «اخاهم» بالكلمة الفرنسية (leur Contribule (11, p.441. ويبين هذا المثل ان كلمة أخ او أخت يمكن استعمالها بمعنى «احداً من القبيلة» او «واحد منهم».

٢ - في خطبة شهيرة لعلي بن أبي طالب سجلت في نهج البلاغة نجده يستشهد ببيت شعري نسبه قائلاً: «كما قال أخو هوازن» أي دريد بن سِمّة الذي ينتمي إلى قبيلة هوازن.

٣ - كثيراً مايقال عن الحجاج الثقفي انه اخو ثقيف نسبة لانتمائه لهذه القبيلة.

٤ - من المعتاد حتى يومنا هذا استعمال عبارة يا أخا العرب في الجرائد والصحف بمعنى أيها المنتمي للأمة العربية.

توجد آلاف الأمثلة من هذا النوع في الكتب العربية التي كتبت في مختلف العصور. ولهذا أكدنا في بداية هذا الفصل أن تفسير عبارة «يا أخت هارون» أمر سهل للغاية لأنها تعني ببساطة «المنحدرة من سلالة هارون». فهذا تفسير لغوي بديهي لكل من يجيد العربية ويعرف تلوناتها المتعددة.

لكن يمكن مع هذا أن يعترض احد قائلاً لماذا جاءت تسمية مريم في هذا الموضع من القران بأخت هارون؟ والجواب هو أن مريم عوتبت من قومها لأنها في نظرهم اقترفت إثماً كبيراً وحملت دون زواج. ويزداد وقع العتاب شدة وهي منحدرة من آل هارون. فاستعمال كلمة هارون هنا جاء لتذكير مريم بفظاعة خطيئتها.

---

(١) اقربهم إلينا تاريخاً هو موريس جودفراو ديمومبين Mourice Gaudefroy Demombynes في كتابه «محمد» Mahomet ص ٣٨٤ Paris 1957 مع انه تراجع قليلاً عن ادعائه قائلاً: «هذا يعني ان النبي يكون قد فكر بأن التوراة والإنجيل نزلا في فترة واحدة».

العبارة في غاية الجمال الخطابي وتتناسب تماماً مع البلاغة القرآنية التي أضيفت عليه إعجازه.

لهذا السبب نقول أن عبارة «أخت هارون» لم تثر في وقت النبي محمد أي مشكلة سواء لدى المسيحيين أو لدى اليهود وفهمها المسلمون طبعاً على أنها «أيتها المنحدرة من سلالة هارون».

المدهش في الأمر هو الطبري وفخر الدين الرازي لم يتبينا هذا التفسير، حيث ظل رأي الأول غير واضح بينما انضم الثاني للرأي القائل بأن مريم كان لها فعلاً أخ اعتبر من أتقياء بني إسرائيل. ولهذا استعمل قوم مريم اسمه ليكون وقع العتاب أشد على مريم، لأن من له أخ كهذا وأهل كهؤلاء لابد وأنه يشعر بعظمة خطيئته[1].

الرأي الغريب للقريظي:

أغرب رأي لدى المفسرين المسلمين هو ذلك الذي تبناه محمد بن كعب القريظي المنحدر من قبيلة بني قريظة، وهي قبيلة يهودية من المدينة طردها وشردها محمد. ويدعي محمد بن كعب القريظي، أن مريم هي أخت هارون شقيقته من أمه وأبيه، وهي أخت موسى أخا هارون الذي مشى على درب موسى. ويرد ابن كثير بشدة على هذا الرأي (للجزء الثالث، ص ١١٩): «هذا الرأي خاطئ» تماماً. لأن الله قال في كتابه القرآن أنه بعث عيسى بعد الرسل ولم يأت بعده سوى محمد...

وقد جرت العادة عندهم أن يسموا بأسماء رسلهم والصالحين منهم» ص ٢٠٥/٢٠٦، النص في كتاب ابن كثير جزء ٣ ص ١١٩.

هذا النص لابن كثير مهم جداً لأنه يكشف لنا مصدر الخلط بين مريم أخت موسى وهارون ومريم العذراء أم عيسى. وقد جاء بقصة مريم الأولى من (سفر) الخروج الأصحاح ١٥، ٢٠ - ٢١ حيث نقرأ «فأخذت مريم النبيّة أخت هارون الدفّ بيدها. وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص. وأجابتهم مريم. رنّموا للرب فإنه قد تعظّم. الفرس وراكبه طرحهما في البحر».

---

(١) فخر الدين الرازي: تفسير، سورة ١٩، آية ٢٩، جزء ٤، ص ٣٧١. مطبعة بولاق، القاهرة ١٨٦٢.

لكننا نتساءل: لو كان للقريظى على دراية جيدة بالإنجيل كيف يخطىء بهذه الطريقة ويخلط بين مريم أخت هارون وموسى ومريم العذراء أم عيسى؟ هذا أمر غريب فعلاً

ولنا ان نتساءل ايضاً: أليس القريظى هو مصدر الفرضية الثانية التى استعرضها ريلاند Reland، وكذلك مصدر الاتهام الذى رفع لواءه بعض المستشرقين حول خلط القرآن بين المريم الأولى والثانية. ولم يذكر رأى القريظى فى كتب الطبرى وفخر الدين الرازى. إذ لم نجد له أثراً سوى لدى ابن كثير (١٣٠١/٧٠١ - ١٣٧٣/٧٧٤) الذى لم يذكر أى شىء عن مسألة المعجزة التى تفسر الخلط أو المزج بين المريم الأولى والثانية. وهى المعجزة التى تكون بفضلها استطاعت مريم أخت هارون أن تحفظ إلى وقت ميلاد عيسى.

أما ريلاند الذى تحدث عن هذه المعجزة فقد أخذها عن جادنيولو Guadagnolo فى كتابه «الدفاع عن الديانة المسيحية» Apologia fro religione Christiana. Contra Ahmedem Abu Zin Persam. p 279. Fillippo Guadagnolo (Magliano, Abruzzi, 1596 environ - Rome 1656).

لقد كان هذا الأخير مستشرقاً إيطالياً وقسيساً ينتمى إلى رهبانية كلريكوس مينور Dei chiérici regulari minori وكان أستاذاً للغة العربية فى جامعة روما وقام بتأليف كتاب عن القواعد العربية صدر عام ١٦١٢ Breves instutianes arabicae linguae وقاموس عربى Thesaurus seu Dictionarium arabicium لكنه كتب كذلك كتب تدافع عن الديانة المسيحية apologiaa fro christiana religione, 1631 وConsideragzioni contra la religione Naomettana, 1649. كما شارك فى ترجمة الإنجيل إلى العربية (Biblia arabica, 1671).

الكتاب الذى يهمنا هنا هو «الدفاع عن الديانة المسيحية» Apologia fro christiana religione الذى كتبه ليرد على المسمى أحمد بن زين العابدين الفارسى الأصفهانى مؤلف كتاب بالفارسية بعنوان «صاقل المراة» وهو بدوره رداً على كتاب عنوانه «مراة مرئية الحق».

صدر كتاب جادنيولو فى روما عام ١٦٣١ ثم ترجمه إلى العربية بعد ذلك بست

سنوات تحت عنوان «إجابة القسيس الحقير فيليبس كورانولوس الراهب، من رهبانية يقال لها بلغة الفرنجي كلريكوس مينور، إلى أحمد الشريف بن زين العابدين الفارسي الأصفهاني».

أما عنوانه اللاتيني فهو: R.P. Philippi Guadagnoli (lericorum reg. Minorum Pro Christiana Religione Responsio ad objectiones Ahmed Filii Zin Alabedin, Persa Asphahanensis)

بعدما عرض اتهام الخلط بين مريم الأولى والثانية نجده يعرض رد المسلمين عليه كالآتي:

"Scio responsionem, quam aliqui Mahometanorum assignare conantur: nempè, illam eamdem Mariam fuisse miraculosè à Deo usque ad illa tempora servatam, ut Christum conciperet. Verum responsio nulla est; quia in sacra scriptura, cap. 20. Num. Allegato, habetur, illam obiisse; et convenunt in hoc Codices, tam qui sunt apud Christianos, quam qui extant apud ludaeos. Ergo, nullo modo potest dici contra scripturas, illam fuisse miraculosé servatam usque ad illa tempora". (p. 279).

جاءت هذه الفقرة في الصفحة ٥٣٤ من الطبعة العربية.

لم يشر جادنيولي مثلما هو ظاهر إلى المصدر الذي وجد فيه رد المسلمين بهذه الصورة على من يتهمونهم بخلط الأزمنة بين مريم أخت هارون ومريم أم عيسى. وعلى ما يبدو وكما يعترف به شخصياً لم يجد هذا الرد عند خصمه أحمد بن زيد العابدين الأصفهاني. فهل تراه وجده لدى مصدر عربي أو فارسي ما؟ لايمكننا الجزم بأي شيء في هذا الشأن لأنه لم يعطِ لنا أية معلومات عن المصدر الذي اعتمد عليه. هل يكون قد اطلع على تفسير ابن كثير الذي عرض لرأي القريظي؟ وإن كان هذا صحيحاً من أين جاء جادنيولي إذن بمسألة المعجزة التي حفظت مريم أخت هارون وموسى إلى وقت ميلاد عيسى، بينما لم يكن لها أثر في كتاب ابن كثير؟ هل تكون هذه المسألة مجرد استنتاج من كلام القريظي؟ لكن من الذي توصل إلى هذا الاستنتاج؟

ومما لاشك فيه ان هذه المعجزة لم ترد على لسان مفسر مسلم بما ان جانتيولى لم ينسبها للمسلمين. يبقى احتمال اخر. وهو أن جاننيولى او أحد المجادلين المسيحيين هو الذى اختلق هذه القصة. هذا الاحتمال وارد خاصة لو تاملنا فى الفكر الذى حمله كتابه سالف الذكر. فهو لم يستند فيه كثيراً على مصادر إسلامية. ونجده يستشهد في هذا المضمار (ص ٢٩٧ من الطبعة اللاتينية تقابلها ص ٥٥٧ من الطبعة العربية) بكتابين مزيفين بعنوان: كتاب هاجر وكتاب تاريخ الإمام. كما نسب للنبى محمد كتاباً بعنوان كتاب الأنوار (ص ٥٦٠ الطبعة العربية و٣٠٣ الطبعة اللاتينية). بل والادهى من ذلك نجده يدعى ان محمد قد ألّف كتاباً يحتوى على ١٢ الف حديث وانه عندما سئل من طرف المسلمين حول صحة هذه الأحاديث قال أن ٣٠٠٠ منها فقط صحيحة (ص ٥٢٨ الطبعة العربية = ٢٨١ اللاتينية).

هكذا اكتنفه الالتباس وظن ان كتب السيرة والسنة ألّفت من طرف محمد وانها وجدت منذ عهده. كيف كان جاننيولى هذا وهو أستاذ اللغة العربية فى جامعة روما بهذا الجهل وبهذه الدرجة من سوء النية. فكتاب الدفاع عن الديانة المسيحية Apologia Christiana Religione ملىء بالمغالطات لدرجة لايمكن الاستفادة من معلوماته بشىء.

ابن كثير وحجته المبنية على فقه اللغة والتاريخ:

لنبحث قليلاً في شخصية القريظى صاحب الراى القائل أن مريم أخت هارون وموسى هى نفسها مريم ام عيسى. اسمه ابو حمزة محمد بن كعب القريظى. ويعطى لنا السمعانى تفصيلاً اكبر عن شجرة عائلته، فهو: محمد بن كعب بن سليم بن عمر بن لاس ابن جان بن عمران بن عمير بن قريظة بن الحارث. وأصله من المدينة. وكان من ابرع رجالها فى علوم الحديث والفقه. ويعتمد على رواة مثل ابن عباس، وابن عمرو وزيد بن الأرقم.. وتوفى فى المدينة فى عام ١٠٨ او ١١٧ هجرى[١]. لم نجد معلومات أخرى عنه. لمعرفة اتجاهه الفكرى وأرائه بشكل اوضح يجب الإطلاع على الأقوال المنسوبة إليه فى تفاسير القران. عندها سيتبين مدى تاثره وتأثر تفسيره للقران بما يطلق عليه الإسرائيليات ومعرفة ما إذا كان استقى أرائه من الأنجيل والتلمود.

---

(١) انظر السمعاني: الأنساب، s.v., imp. en fac - sini là par D.S. Margoliouth, Leiden. 1912.

ولقد هاجم ابن كثير رأي القريظي حول الخلط بين مريم أخت موسى وهارون ومريم أم عيسى، لأنها تؤدي إلى خلط زمني يصبح بموجبه داود وسليمان أنبياء بعد عيسى. وهذا مايتنافى مع القرآن طبعاً. إذ جاء في القرآن أن داود وسليمان جاءا بعد موسى وهذا مانتص عليه - كما يقول ابن كثير - الآية ٢٤٦ - ٢٥١ من سورة البقرة: ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله...﴾ إلى غاية ﴿وقتل داود جالوت...﴾ (ترجمة بلاشير).

وقد استشهد المستشرق جورج سال George Sale بدوره بحجة ابن كثير المؤسسة على القرآن عندما علّق[1] على سورة آل عمران قائلاً: «عِمران أو عُمران هو اسم شخصين مختلفين وفقاً للديانة المحمدية. الأول هو أبو موسى وهارون والثاني هو أبو مريم العذراء (انظر الزمخشري، البيضاوي). لكن بعض الكتاب المسيحيين أطلقوا عليه اسم يوياكيم Joachim. وافترض المفسرون أن الأول أو بالأحرى كلاهما هو المقصود في هذا المكان. على أية حال فإن الشخص المقصود في الفقرة الثانية متفق على أنه عمران الثاني الذي إلى جانب مريم العذراء كان له ابناً اسمه هارون. (انظر القرآن، سورة ١٩) وبنت أخرى تدعى أشياع (إليصابات) التي تزوجت زكريا وهي أم يحيى. لذلك يقال عن هذا النبي وعن عيسى في الديانة المحمدية أنهما أولاد الخالة.

ومن ناحية التعريف بالأسماء نشأ لدى الكتاب المسيحيين عموماً فكر يرى أن القرآن يخلط بين مريم أم عيسى ومريم أخت هارون وموسى ويخلط بالتالي خلطاً غير معقول بين الأزمنة. ولو كان ذلك حقيقياً فهو كان لتحطيم صفة الألوهية المزعومة لهذا الكتاب[2]. لكن ولو افترضنا مثلاً بأن محمد على درجة من الجهل بالتاريخ القديم والترتيب الزمني تجعله يقع في هذا الخطأ الكبير فإنني لا أستطيع أن أرى حتى الآن كيف يمكن استنتاج ذلك الخطأ من القرآن. فكون شخصين يحملان نفس الاسم لا يتبعه بالضرورة أن يكونا

(1) the Koran, Commonly called the Alcoran of Mohammed, translated into Englis immedately form the original arabic with explanarory noted, taken from the most approved commentators, to wich is prefixed a frelimenary discouse by George Sale, p 39 (de la traduction) a. b. Lowdon, 1734.

(2) N:V. Reland, de tel. Moh. p 211. Marracc, in Alc. p 115. ect. Prideaux: Letter to the Deits, p 185.

شخصاً واحداً. هذا الخطأ يتعارض مع الآيات القرآنية الاخرى يظهر منها ان محمد كان يعلم ان موسى قد سبق عيسى بعدة عصور. وبناءً على ذلك فإن المفسرين لم يخفقوا فى إخبارنا بانه قد مضى حوالى ١٣٠٠ سنة بين عمران ابو موسى وعمران ابو مريم العذراء. اما المستشرقين قد جعلوا من هذين العمرانين ابنين لشخصين مختلفين. الاول على حد قولهم كان ابن يشلو Yeshar، ازهار Izhar (الذى كان فى الحقيقة اخاه[1]) ابن كهات Kahath ابن ليفى Levi. اما الثانى فكان هو الآخر ابن مثان[2] وفقاً لشجرة العائلة التى تتبعوها حتى دفيد ومنه ابم[3].

لكن باسلوب خاطىء وسىء النية. ربما يلاحظ أن العذراء سميت أخت هارون فى القران[4] وليست اخت موسى التى تكون قد حفظت بمعجزة منذ عهد موسى حتى عيسى لتكون امه»[5].

هذه الملاحظة الصائبة فى مجملها، الموجزة والغنية بالمعلومات اكثر موضوعية واشد دقة علمية بكثير من كل ما قرأناه اعلاه تحت اقلام مستشرقين مثل جريم، وهوروفيتز وفينسنك، وجود فروا ديمومبين وباريت وغيرهم كثيرون من المستعربين الذين توالوا بعدهم بقرنين.

وقد اعتمد سال على أعمال ريلاند واستفاد منه، لكن رايه كان اكثر تطوراً من هذا الأخير حيث دافع عن رايه باللجوء إلى حج مؤسسة على فقه اللغة وعلى العقلانية. كما استغل المستشرق اراء المفسرين المسلمين امثال الزمخشرى (الكشاف) البيضاوى (انوار التنزيل واسرار التاويل).

---

(١) الخروج، اصحاح ٧، ١٨.
(٢) الزمخشرى. البيضاوى.
(٣) انظر Reland. De rel. Moh. p 211. D'Herbelot. Prib. Orient.
(٤) سورة ١٩.
(5) Guadagnoli Apology pro rel. chri. contra Ahmad Ebn Zeid al Abedin. p 279.

الخاتمـــة

بعد هذا الحديث المستفيض نصل إلى الخلاصة:

١ - إن العبارة القرانية ﴿يا اخت هارون﴾ من السورة ١٩ الآية ٢٩ تعني ببساطة: «أيتها المنحدرة من سلالة هارون». إن وقع الاتهام بالزنا الذي وجهه اليهود إلى مريم لابد ان يكون اشد الماً نظراً لانها تنحدر من سلالة انبياء. ويؤكد كتاب لوقا على هذه القرابة مع سلالة الأنبياء حيث جاء فيه أن مريم هي قريبة اشياع او إليصابات (كما جاء في الانجيل) وهي والدة يحيى النبي.

٢ - لقد فهم يهود ومسيحيو المدينة والجزيرة العربية العبارة بهذه الصورة. فمن الناحية اللغوية كان ولا يزال استخدام كلمة: «اخ» او «اخت» او «يا اخا» و«يا اخت» متبوعة باسم القبيلة والقوم والنسب يحمل معنى: المنحدر من القبيلة القوم او النسب. وقد لاحظ الطبري والعديد من مفسري القران هذا الامر واعطوا له الكثير من الامثلة. لقد اعطينا كذلك العديد من الامثلة المستقاة من القران ومن اقوال كتاب كبار.

٣ - لهذا نعتقد أن عبارة ﴿يا اخت هارون﴾ لم تثر في عهد محمد اية مشكلة. اما عن رواية مسلم والنسائي والترمذي - بتحفظ - عن الطبري حول الجدل الذي دار بين المغيرة بن شعبة مبعوث النبي إلى نجران وبين اهل هذه المدينة فهي في نظرنا رواية مختلقة للتصدي لاعتراض جابهه الرسول بنفسه.

كما نستبعد من جهة أخرى الحل الذي يقترحه الطبري وتبناه فخر الدين الرازي والذي مفاده أن مريم ام عيسى كان له فعلاً أخ اسمه هارون. لأن هذا الحل لايستند على اية معطيات تاريخية.

٤ - يمكن أن نتساءل: من كان وراء اتهام القرآن بالخلط بين مريم أم عيسى ومريم اخت موسى وهارون وبالتالي بالخلط بين الأزمنة؟ اول كاتب مسيحي تفوه بهذا الاتهام هو يوحنا الدمشقي (المتوفى عام ٧٤٩) وإن لم يكن هو صاحب الاتهام فإننا يمكن أن ننسبه لمسيحيي سوريا خلال القرن الأول الهجري (السابع الميلادي). حيث اخذه عنهم يوحنا الدمشقي وسجله في كتابه Haeresibus.

٥ - ومن هنا اصبح هذا الاتهام اكثر الاتهامات تداولاً للهجوم على القران والنبى منذ القرن الثامن إلى يومنا هذا. تداوله رجال الدين وكذلك بعض «العلماء» واستخدموه فى مجادلاتهم ضد الإسلام وفى دراساتهم وملاحظاتهم «العلمية».

٦ - ولمواجهة هذا الهجوم صقل حديث المغيرة بن شعبة ولقن من طرف بعض المؤرخين.

٧ - أما ابن كثير فقد قدم حجة عقلانية تعتمد على النقد التاريخى تتلخص فى استحالة وقوع القران فى التباس وخلط زمنى لان يظهر من خلال ايات اخرى ان فى القران إدراك عميق بالمسافة الزمنية التى تفرق بين هارون ومريم أم عيسى.

واستشهد بهذه الحجة جورج سال George فى ملاحظة على الآية المعنية فى ترجمته الإنجليزية للقران الصادرة عام ١٧٣٤. إذ يؤكد انه من المستحيل أن يكون القران قد وقع فى هذا الالتباس الزمنى لانه كما يقول: "in consitent with a number of other places in the Korn, where by it manifesthy appears tht Mohammed well knew and asserted that Noses preceded Jesus several ages".

٨ - لهذا يبدو انسياق جريم وهوروفيتز وفنسنك وبلاشير وجود فروا ديمومبين وباريت (حتى لو كان الاربعة الاخيرين قد ضمنوا الاتهام فى جملة شرطية) امراً غريباً، لانهم لم يؤسسوا اتهامهم على اية حجج. كما انهم لم يعبئوا بمناقشة الحلول المقترحة من طرف المفسرين المسلمين والتى تبناها كتاب اوروبيون مسيحيون اخرون مثل ريلاند وجورج سال.

يمكن ان نفهم مثل هذا الموقف من قساوسة ورجال دين ومبشرين مثل يوحنا الدمشقي ونيكولا دى كوزى Nicholas de Cuse وجودنيولو Guodagnolo وغيرهم. لكننا لا نفهمه عندما يتعلق الأمر بعلماء يفترض فيهم الموضوعية وعدم الانحياز.

الفصل الثالث عشر

مشكلة هامان

لقد اثارت مسألة هامان جدلاً كبيراً فى اوساط منتقدى القران؛ الذى تكر هذا الاسم ست مرات على انه احد معاونى او وزراء فرعون. وهذه هى الآيات التى ذكرته:

١ - ﴿ونمكّن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون﴾ (القصص: الآية ٦).

٢ - ﴿فالتقطه ال فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ (القصص: الآية ٨).

٣ - ﴿وقال فرعون.... فاوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلّى اطّلع إلى إله موسى وإنى لاظنه من الكاذبين﴾ (القصص: الآية ٣٨).

٤ - ﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبيانات فاستكبروا فى الارض وما كانوا سابقين﴾ (سورة العنكبوت: الآية ٣٩).

٥ - ﴿ولقد ارسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾ (سورة غافر: الآية ٢٣ - ٢٤).

٦ - ﴿وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً لعلّى ابلغ الاسباب. اسباب السموات فاطّلع إلى إله موسى وإنى لاظنه كاذباً﴾ (غافر: الآية ٣٦ - ٣٧).

يبدو بديهياً من هذه الآيات ان هامان هو على الغالب وزير فرعون. ولهذا السبب آكد كل مفسرى القران ان هامان كان وزير فرعون الذى حكم فى عهد موسى. والمشكلة الوحيدة التى اثاروها بشأنه انصبت حول ما إذا كان هامان قد بنى فعلاً برج بابل.

البعض يقول إنه بناه فعلاً وسخّر لذلك خمسين الف عامل عكفوا على بنائه. وعندما شيّده صعد فرعون إلى اعلاه واطلق سهماً ناحية السماء فرجع له ملطخاً بالدم. عندما قال فرعون: لقد قتلت إله موسى.

جانب اخر من المفسرين الأكثر استنارة لم يعتمد هذا التفسير وقالوا إن فرعون لم يشيّد هذا البرج حيث - كما يقول الفخر الرازى - لايمكن لشخص عاقل الظن بأنه سيقترب من السماء لو صعد على برج مهما كان علوه. وحتى لو صعد على أعلى جبل فإن السماء تظل بعيدة عن متناوله كما لو كان على سطح الأرض المسطحة. وأى رجل عاقل يعرف جيداً انه لايمكنه إصابة السماء بسهمه. وبالتالى لايمكن تفسير هذه المسألة بصورة لايقبلها العقل. لهذا قال الرازى إن التفسير المرجح هو أن فرعون قد أوهم ببناء البرج لكنه لم يفعل ذلك فى الحقيقة. أو انه قال جملة ﴿فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلّى اطّلع إلى إله موسى﴾ ساخراً وليثبت أنه لايمكن إثبات وجود إله موسى إلا بالصعود إلى السماء والتأكد من ذلك. ومهما كان علو البرج فإن ذلك يبقى مستحيلاً. وقد اعتقد الرازى[1] بهذا التفسير الذكى انه وضع حداً لما جاء على لسان فرعون من سخافة.

لكن المفسرين المسلمين لم يثيروا أى جدل بشأن شخصية هامان. ويدل هذا على ان المسألة لم تثر من أساسها من طرف المسيحيين واليهود الناقدين للقران وإلا لكان رد عليهم المسلمون. فعلاً لم تثر شخصية هامان اية مشكلة ابتداءً من يوحنا الدمشقى إلى عصر النهضة[2] إذ لم تظهر إلا فى عهد الجدل المسيحى المعاصر.

وحتى لانعود إلى الوراء كثيراً بخصوص هذا الجدل سنكتفى بما جاء على لسان تيودور نولدكه Théodore Nöldeke المستشرق الألمانى المشهور. حيث يقول فى مقال نشر اولاً حوالى عام ١٨٨٧ فى دائرة المعارف ا لبريطانية، الطبعة التاسعة[3] فى -Encyclopae dia Britanica, 9eme éd. tome XVI, p 597. «اكثر اليهود جهلاً لايمكن ان يعتبروا هامان (وزير احشويروش) هو نفسه هامان وزير فرعون» (Sketches.. p 30).

ونقف قليلاً عند ما يؤكده نولدكه لنسجل بعض الملاحظات:

١ - بأى حق يدعى ان شخصية هامان فى القران هى نفس شخصية هامان التى جاء

---

(١) فخر الدين الرازى: تفسير القران، القاهرة. جزء ٢٤، ص ٢٥٣، وتوجد مسودة من الحل الذى توصل إليه فى تنزيه القران لعبد الجبار، ص ٣١٠.

(٢) انظر Adel - Théodore Khoury, Les Nheologiens bysantins et l'Islam. Louvain 1969 .

(٣) أعاد نشر المقال فى كتابه The Sketches from Eastern History, 1892, pp. 21 - 58.

ذكرها في سفر استير (الاصحاح ١٣ : ١ ـ ١٥، ٧) من العهد القديم على إنها شخصية مقربة من ملك الفرس احشويروش وكان متزوجاً من استير؟ فلم يذكر ابداً في الإنجيل أو في الأساطير أو الكتابات الدينية اليهودية أن هامان هذا قد شيّد برجاً. أما برج بابل الذي جاء ذكره في سفر التكوين: الإصحاح ١١، ١ ـ ٩. فمن المفروض انه شيّد من طرف المنحدرين من نوح بعد الطوفان بقليل. ومن ناحية أخرى كان الملك احشويروش يحكم من عاصمته شوشن التي توجد في بلاد الفرس ولا تمت بصلة إلى بابل. أما هامان فقد كان «ابن همداثا الأجاجي» (استير ٤، ١) وهي بلاد مجهولة.

بالتالي فإن الإنجيل الذي يدعي البعض انه مصدر القرآن، لم يربط هامان ببابل ولا ببرج بابل. فمن أين جاء الخلط إن وجد، بين هامان المقرب من الملك احشويروش وهامان الذي ذكر في القرآن؟!

لكن نولدكه لم يشغل باله بإثبات إدعائه الجائر. وهذا مدهش بالنسبة لشخص يعتبر من أعمدة الاستشراق!

٢ ـ وإذا كان، كما يقول، اجهل جاهلي اليهود لايمكنه الخلط بين هامان وزير احشويروش وهامان وزير فرعون فإن هذا يعني أن محمد قد واجه انتقادات اليهود في عصره وأن ذلك سجل في القرآن كما هو حال كل المجادلات. لكن هذا لم يحدث. ولهذا نقول أن إدعاء نولدكه خاطىء وسخيف.

أما موريس جودفروا ـ ديمومبين Maurice Gaudefroy - Demombynes فيقترح علينا افتراضاً لايقل سخفاً من الافتراض السابق. بعد أن استعرض باختصار الآيات المذكورة سابقاً يقول: «إنها ذكرى إنجيلية يشوبها الالتباس. لقد عرف عن هامان عدائه لليهود. وقد ضُم في القرآن إلى هارون وقارون أغنى رجل على الأرض ليشكلوا مجتمعين ثلاثياً لم يكن غريباً على الشعر العربي القديم»[1]. هذه الأسطر ليست واضحة لأنها تخلط بين الشخصيات الثلاثة دون أن توضح الإلتباس الذي يشير إليه صاحبها الذي يبدو أكثر غموضاً من نولدكه. ومن جهة أخرى ما علاقة كون هامان معادياً لليهود باعتباره وزيراً

---

(1) Maurice Gaudefroy - Demombynes, Mahomet, Paris, p 360

لفرعون في القرآن. فلقد كان لليهود أعداء أشد ضراوة ذكروا في الإنجيل ولم يذكرهم القرآن ولم يجمع بينهم وبين فرعون.

فأقوال جود فروا ديموميين أكثر غباءً وتكشف عن تشوش أفكاره.

بعد استعراضنا لإدعاءات هذين المستشرقين سنرى ماهي حقيقة هامان.

نعتقد أن اسم هامان الذي جاء في الآيات الست السابق ذكرها ليس اسم شخص لكنه لقب أعطي لكبير كهنة فرعون. إذ نعرف من خلال المعلومات التاريخية عن مصر القديمة أن كبير كهنة أمون قد حاز منذ الأسرة التاسعة عشر مكانة كبيرة لدى فرعون، لدرجة أنه استولى على إقليم أعالي النيل وأصبح قائد كل الجيوش وكبير خزانة الإمبراطورية والمشرف الأعلى على معابد الآلهة[1]. ولقد كان وزير فرعون يراقب فعلاً «كل أعمال البناء العمومية والمالية»[2]، وكان المشرف الأعلى على كل أعمال الملك. (نفس المرجع). وبالتالي كان كبير كهنة أمون يشغل منصب وزير فرعون.

وفرضيتنا هي أن: اسم هامان في القرآن يشبه أو يماثل اسم أمون. ويسهل التقريب بين الاسمين عندما نعرف أن أمون ينطق كذلك أمانا (انظر Encyclopeadia Britanica, 1, p 321, col. 1; coll. 1; éd 1982)، ويقصد منه بالاختصار «كبير كهنة.....»، ومثلما كان اسم فرعون يدل على الملك أصبح اسم هامان يدل في اللغة الشفوية المتداولة على وزير فرعون.

ويمكن بالاستناد على فرضيتنا تفسير أن وزير فرعون الذي عاصر موسى كان اسمه هامان. لاتوجد مشكلة تذكر بشأن هذا الاسم. وأي اعتراض أو انتقاد مثار بهذا الخصوص يعد خاطئاً يحركه سوء النية. وهو سوء النية بالذات الذي جعل نولدكه يكتب ما كتبه في كتابه (Sketches...). حيث جاء في فقرة منه (ص ٣٠ - ٣١) حول هامان ومريم «بالإضافة إلى هذا التصور غير المعقول يوجد تحويرات مزاجية شتى بعضها يدعو للسخرية وينسب إلى محمد نفسه. والمثال على جهله لكل الأمور خارج الجزيرة هو جعل الخصوبة في مصر - التي تشح فيها الأمطار - مرهونة بالأمطار وليس بفيضان النيل».

---

(١) انظر A.H. Breasted, A History of Egypt, p 520.

(٢) Dumas, La civilisation de l'Egypte pharaonique, Paris, 1965, p 158.

هذا الانتقاد فى غاية الغباء وينم عن جهل نولدكه ـ المستشرق المشهور ـ باللغة العربية والشئون المصرية:

١ ـ لقد جاء فى الآية (٤٩ سورة ١٢) التى يستشهد بها مايلى ﴿ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾. والمعنى كلمة يغاث هو «ينجى»[١]. لكن نولدكه وقع فى الغلط بسبب اعتماده على بعض المترجمين الأوروبيين للقرآن الذين توسعوا بدورهم فى تفسير هذه الكلمة بدلاً من ترجمتها ترجمة دقيقة.

وهذا يعود إلى مسايرتهم لبعض المفسرين امثال السيوطى الذين استفاضوا فى التأويل لتسهيل فهم النص.

ولكن نولدكه على غرار أولئك المترجمين للقرآن لم يحسنوا قراءة هؤلاء المفسرين وتعجلوا فى فهم ماكتبوه.

اما سال Sale فهو يترجم الآية المذكورة اعلاه كالآتى:

"Then shall there come, after this a year wherein men shall have plenty of rain, and wherein they shall press wine and oil".

ونجده فى ملاحظة سجلها فى أسفل الصفحة يقول: «علينا أن نفند ماكتبه بعض المؤلفين القدامى. فلقد كانت تمطر عادة فى الشتاء خاصة فى الوجه البحرى وقد لوحظ الثلج فى الإسكندرية على نقيض مايزعمه Seneca صراحة.

فعلاً تصبح الأمطار أكثر ندرة فى الوجه القبلى فى اتجاه شلالات النيل. وعلى أية حال فإننا نفترض أن الأمطار التى ذكرت هنا قصد بها تلك التى تسقط فى إثيوبيا وتسبب ارتفاع منسوب النيل»[٢].

فالمصريون الذين يعيشون فى الصعيد، فى الدلتا، يعلمون جيداً أن الأمطار تتساقط

---

(١) انظر تفسير الرازى، الجزء ١٨، ص ١٥٠ ـ ١٥١؛ وأبو حيان، الجزء ٥، ص ٣١٤.
(٢) The Koran, translated into Englisch from the original Arabic by George Sale. هذه الترجمة صدرت عام ١٧٣٤.

بغزارة خلال فصل الشتاء أى خلال أربعة أشهر (من ديسمبر إلى مارس). وأن زراعة القمح، والبرسيم والشعير والفول إلخ.. تعتمد أساساً على الأمطار التى تتساقط خلال هذه الفترة.

اعلم أن نولدكه، المتخصصين فى الدراسات للعربية والإسلامية، لم تطأ قدمه البلدان الإسـلامـيـة ولم يغـادر أوروبا طوال عـمـره (١٨٣٦ ـ ١٩٣١)! لكن ألم يطلع رغم هذا على ترجمة القرآن التى أنجزها «سال» المنتشرة خلال القرن الثامن عشر؟ هذا لايعقل.

إن خطأ نولدكه مزدوجاً: فهو لم يفهم النص العربى للسورة ١٢ الآية ٤٩، ثم أنه يؤكد أن المطر يكاد ينعدم فى مصـر وأ هلها لم يشـعروا أبداً باحتـياجهم له، وهو الخطأ الذى لايقع فيه أحد من صبية مصر[1].

---

(١) معدل الأمطار التى تسقط فى الإسكندرية وشمال الدلتا يقدر بـ ٢٠٦ مم، وفى القاهرة ٣٢ مم. انظر:
L.S. Suggate, Africa, London, Harap, 1974.

الفهرس

الفهـــــرس

الدفاع عن القرآن ضد منتقديه

▪ يسجل التاريخ أن أوسع جملة شنت على القرآن والإسلام وأثارها المستشرق چان كنتاكوزين إمبراطور بيزنطة. وبسقوط القسطنطينية على يد المسلمين الأتراك عام ١٤٥٣م توقف كل الجدل البيزنطي ضد الإسلام، وانتقل مركز ثقل الهجوم إلى أوروبا المسيحية التي رفعت اللواء.

ما من شك في أنه ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر حاول المستشرقون توخي الموضوعية والدقة في أطروحاتهم وكذلك الاهتمام الشديد بالتدقيق الموضوعي.

لكن الغريب في الأمر أن أدوات فهم اللغة الحديثة التي توفرت للمستشرقين منذ منتصف القرن الماضي - خاصة بفضل سهولة الوصول إلى المخطوطات - قد أعطت لبعضهم المزيد من الجسارة في اختلاق الفرضيات والنظريات الزائفة الوهمية ليستخلصوا منها ما يشاءون من نتائج تجانب الصواب.

لهذا السبب يأخذ هذا الكتاب الذي نحن بصدده على عاتقه فضح وكشف هذه الجراءة الجهولة. وليس في نيتنا، مع هذا، حل كل المعضلات القرآنية المثارة - بعضها يظل - وسيظل ربما دائما - موضع بحث ودراسة أعمق وأفضل تناولا من عدة زوايا.

المؤلف